الدكتور ابراهيم عبده

ومن النفاق ما قتل ..

الطبعة الثانية

١٩٨٣

الناشر
مؤسسة سجل العرب

الدكتور ابراهيم عبده

ومن النفاق ما قتل ..

الطبعة الثانية

١٩٨٢

الناشر
مؤسسة سجل العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا الكتـــاب

كان هذا الكتاب معدا للنشر منذ شهر سبتمبر ١٩٨٠ ، وكانت معظم فصوله موجهة الى سلطان ذلك الزمان ، ثم الى شباب هذا البلد الذى عاش لا يقرأ ولا يسمع إلا الأكاذيب وتزوير التاريخ ، ولكن بعض فصوله ضاعت ولم يكن من اليسير كتابتها من جديد ، اذ كان ذلك تكليفا لا أحتمله مع مشاغلى فى القاهرة ، فنام الكتاب سنة كاملة حتى آويت الى محرابى الذى اعتدت أن أكتب فيه بعيــداً عن العاصمة وصخبها فأكملته وأضفت إليه •

ثم عدت الى القاهرة وبعثت بفصوله ، قديمها وحديثها الى صديق أعتز برأيه فيما أكتب ، وفجأة انطلقت الرصاصات على الرئيس الراحل ، وأعلنت الأحكام العرفية ، واستفتى الناس على رئيس جديد ، وجاءت بهذا الرئيس الى السلطة أغلبية ساحقة ، وصدرت عنه تصريحات أسعدتنى فكتبت إليه أقول :

السيد الرئيس محمد حسنى مبارك

« تحية طيبة مباركة وبعــد ••

فإليك يا سيدى أبعث بهذه الرسالة راجيا أن تجد من وقتك

متسعا لقراءتها ، فهى صادرة من رجل أسعده اجماع المصريين على ولايتك شؤون بلادهم •

وسره أن تبدأ أعمالك بالحزم فى مطاردة الارهاب أيا كان لونه أو مبعثه حتى شعر المواطنون أنهم حقـا فى طريقهم الى الأمن والأمان ، فان الدين الاسـلامى لم يكن قط دين عنف ، بل هو دين الرحمة والسماحة والقلب المفتوح لكل جميل وجليل ، لذلك يقف وراءك جميع المصريين يشدون من أزرك ويعلقون طيرهم بطيرك •

وقد تفاءل مواطنوك أن تتلقى مقاليد أمورهم الى رجل جاد بعيد عن التظاهر بالمظاهر ، عف اليد واللسان ، فى وجهه سماحة المحب ، وليس فى صدره حقد على أحد أو ضغينة لانسان ، كما هزهم ما جاء فى بياناته وتصريحاته بأنه سيقتلع الفسـاد من مكمنه ، ويقطع أيدى المفسدين ولن يحميهم صهر أو قريب من سطوة القانون ، أو يشفع لهم جاه أو سلطان •

سـيدى الرئيس ••

ان رسالتى هذه تعنى شيئا كبيرا ، وتحمل كثيرا من الأمانى التى يرجوها الشعب ، ويأمل الناس أن تتم على يديك فتنفسح لك صفحات التاريخ تمجد سيرتك وتسجل لك ما عجز عن تحقيقه غيرك من الملوك والرؤساء •

ان الشعب المصرى يرجو أن يكون مكانك فى السماك ، فلا تنحاز لفئة أو حزب أو جماعة بالذات .

يريدون منك رئيسا للمصريين جميعا ، ورئيس المصريين جميعا لا يمكن أن يكون رئيسا لحزب وإلا تحزب وتورط فيما يتورط فيه عادة رؤساء الأحزاب ، ورئيس المصريين جميعا لا ينبغى أن يكون رئيسا للوزارة وإلا استوزر ونزل عن مقامه درجات .

يريدونك فى القمة حكما بين أحزابهم ، لا تؤثر حزبا على حزب ، فقد جئت الى مكانك المرموق لا تعرف الحقد على الماضى أو الحاضر ، وليس بينك وبين ما سبقك من تاريخ ثأر أو عداء ، بل أنت كالثوب الأبيض الزاهى فى عين الشمس ، يتطلع إليك الناس سعداء مبهورين بنقاء هذا الثوب من الكراهية والبغضاء .

لقد تحدثت الصحف أن من هواياتك التعمق فى قراءة تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، ولا شك أنك رأيت فى قراءتك لهذا التاريخ أن بعض أعلامه جاهدوا فى سبيل الديمقراطية منذ عهد الخديو اسماعيل الى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ وقد عوق مسيرتها طغيان الخديويين والملوك وسلطان المستعمر فى البلاد .

وأنت تعلم يا سيدى الرئيس أن الديمقراطية التى نادى

بها أولئك السلف هى التى تسود اليوم البلاد الحرة ، وأنها تعيش بجناحين ، صحافة حرة وأحزاب حرة ، وأنه بغير هذين الجناحين لن يكون هناك معنى للديمقراطية ، وليس فى التاريخ الديمقراطى هذا الذى يسمونه صحافة قومية ، ولا تلك الأحزاب التى تنشأ فى حجر السلطة ، فكل هذه مطايا لدكتاتور ، وليست بحال لشعب حر يتطلع الى مكانه بين شعوب الأحرار .

ان الذى يكتب لك هذا الكلام يدور حــول السبعين من عمره ، ومعنى ذلك أنه لا يطمع فى مال أو جاه ، وقد أفاء الله عليه ببره فجاءه الرزق الحلال الذى يكفيه حاجة السؤال ، وتولى فى شبابه وكهولته أعظم المناصب وهى وظيفة الأستاذ فى الجامعة ، وكان له من الخلف الصالح نحو أربعين ولدا هم كتبه ومؤلفاته ، من بينها ستة صدرت نقدا بناء لحياتنا السياسية ، وكانت هذه الكتب الستة تأريخا صادقا لجهاد المجاهدين قبل الثورة من أجل الحرية والديمقراطية والاستقلال ، فضلا عن أبنــائه الذين تتلمذوا عليه فكان منهم الوزراء والصحفيون وأساتذة الإعلام ، وقد خدم صاحب هذه الرسالة سمعة بلاده بما قدم لبعض الشقيقات العربيات من خبرات هنا وهناك كمستشار للطبــاعة والصحافة أو خبير للنشر والمطبوعات .

لذلك وجدت من واجبى كشيخ عصرته التجارب أن أبسط لك رأى الكثيرين فيما يرجون لمصر من استقرار ، ولا استقرار

كما تعلمون إلا فى اطار الحرية والديمقراطية [1] ا لأنه بهما يقضى على التطرف يمينا أو يسارا ، وتكشف سوءات المستغلين والمنافقين ، وتستقر الأوضاع الاقتصادية وتزدهر ، ويطمئن المواطن على ذاته حين يسود القانون دون اللجوء الى تشريعات استثنائية تجعل الأحرار يعيشون فى جحيم •

وانى لأتمنى أن أرى قبل رحيلى — وعلى يديك — أحزابا من غير عوائق ، وانتخابات حرة ليس على اجرائها غبــار ، وصحفا للشعب وليست للدولة ، وأن يختفى فى زمانك هــذا الفيض من النفاق الذى أفسد الملوك والرؤساء ، وحول بعض أصحاب الرأى ومعظم كتاب الصحف الى أبواق لا هم لهــا إلا شتم المعارضين فى الداخل ان خالفوا رأى الحكومة ، وسب شعوب العرب ان لم تمض على هوانا فيما نتخذ من قرارات ، كما جعل هذا الفيض من النفاق سائر أدوات الاعلام حملة قماقم تقلب الحقائق وتزور التاريخ بالصوت والصورة حتى أصبحنا مضغة فى الأفواه وموضع السخرية فى كل مكان » •

* * *

---

(١) للرئيس الأسبق محمد نجيب حديث ممتع نشر فى مجلة « المجــلة » التى تصدر فى لندن فى العددين ١٠٦ ، ١٠٧ وقد دعا فيهما الرئيس مبارك الى الديمقراطية الحقيقية التى لا تعــرف الضوابط لأن الضوابط تقيد الحريات .

وبعد أسابيع من كتابة هذه الرسالة لم يتحقق من الأمنيات إلا جزء ضئيل جدا ، وشغلنى أن الرئيس طلب منا ألا ننبش الماضى ، ولا أدرى كيف نحقق رغبته ، والحديث عن الماضى ، قريبا كان أو بعيدا ، من سنن الحياة ومن طبيعة البشر ، والانسان بلا ماض لا أصل له ولا جذور ، لذلك كان كشف ماضينا وتقييمه ضرورة فى حيـــاة شعبنا كى يستقيم حاضرنا ويزهو مستقبلنا ، فنأخذ من هذا الماضى الطيبات وننجـــو بحاضرنا ومستقبلنا من خبائثه الكثار .

وهذا الكتاب تقرير للرئيس مبارك ، فيه عرض مستفيض عما عايشناه من أحداث ، قريبها وبعيدها ، لينظر فيه نظـــرة محايدة ، وذلك أمر فى مقدوره ، فهو كما قالت رسالتى اليه لم يتورط قط فى خصومة مع أحد ممن سبقوه قبل الثورة أو بعدها ، وهو والحمد لله مثلنا لا يحسب علي ثورة ٢٣ يوليو وان كان معجبا بها ، اذ لم يكن عضوا فى مجلس قيادة الثورة ، ولا من ضباط الصف الثاني أو الثالث ، بل كان فى صف وحده ، ضابطا يؤدى الواجب المنوط به فى صمت ، وهو ما ينبغى أن يكون عليه كل ضابط .

ان هذا الكتاب سجل أقدمه للرئيس مبارك ، فيه جوانب مشرقة لمـــا سبقه من عهود ، وفيه بيان عن البلاء الذى أصاب بلادنا نتيجة حـــكم الفرد الذى أنصت بكل المودة الى دعاة

السوء ، وأوغل عليه صحبة التدليس والتلبيس ، فبدأت حصيلته بالهزيمة المنكرة فى سنة ١٩٦٧ وكانت خاتمته مصرع الرئيس السـادات •

وسوف يرى الرئيس مبارك أننى لم أبن فصول هذا الكتاب دون توثيق ، وأننى عدت ــ ما أمكن ــ الى كثير من المراجـع فضلا عما تضمنته صحف الحكومة يوميات وأسبوعيات من مئات الخطب والمقالات والأحاديث الصادقة والكاذبة ، الى جانب الاذاعات والتليفزيونات التى عاشت نحو ثلاثين سنة تمجد وتؤله بالصوت والصورة ، ثم عدت الى صحف المعارضة وهى ثلاث يتيمات ، عصفت باثنتين منها الأعصاب المتوترة فى شهر سبتمبر الماضى •

سـيدى الرئيس ••

افتح صدرك لنا واقرأ كتابنا ، فوالله إن فيه لعبرة •••

مصادر الكتاب

لاشك أن كتاب « البحث عن الذات » الذى ألفه الرئيس الراحل منذ سنوات هو أهم وثيقة تاريخية ، تسجل ثلاثة عهود ، عهد ما قبل حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ، وعهده رحمه الله ، ثم عهد سلفه عبد الناصر غفر الله له .

وقد قرأت « البحث عن الذات » يوم صدرت طبعته الأولى ، ومرة يوم شرعت فى تدوين ما أريد من أفكار عما عايشته تلك السنوات ، فكتاب السادات مصدر أصيل سجل فيه ذكرياته صبيا ، ونضاله فتيا ، وكشف لنا فى فصوله عما كنا نجهله حتى صدور كتابه ذاك .

قرأت « البحث عن الذات » واستمعت الى صاحبه وهو يحدثنا عن الجمال وكيف استغرق ذوقه ، وعن الحب وكيف شغل حياته ، كما روى لنا رأيه فى الأحداث والناس ، وخاصة منذ انتفاضة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى توقيع وثيقة السلام فى كامب ديفيد ، وحكمه على الأحداث والناس كحكمنا تماما ، وحصيلته أن النظام الناصرى قد حول المصريين الى شعب

من « المساخيط » [١] وأن جيل عبد الناصر كان جيل « الحقد على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للابن أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشية » [٢] .

أخذ السادات يبحث عن ذاته فى أكثر من ثلاثمائة وخمسين صفحة ، بيْد أننى وجدت ذاته فى فقرة من صفحة ، وكانت الصفحة تتحدث عن انتقال أسرته من ميت أبو الكوم الى القاهرة ، وقالت الفقرة « فى الحارة التى كنا نسكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشترى علبة كبريت من البقال .. قلت « أنا عاوز علبة كسفريت » وفجأة انفجر الزبائن بالضحك .. اندهشت فيمَ يضحكون ؟ قالوا « ضرورى تقول كبريت .. » صممت على « كسفريت » [٣] .

ويبدو أن الصبى أصر على ألا يسمى الكبريت إلا كسفريتا كلما نزل يشتريه من البقال ، وقد سمى ذلك « إرادة التحدى » ولم يكن شراء الكبريت فى رأيى وتسميته بالكسفريت يمثل فى هذه الحادثة الصغيرة تحديا بالمعنى المفهوم ، هذا التحدى الذى بدا واضحا فيما بعد إبان شبابه وخلال أيام حكمه .

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٢
(٢) البحث عن الذات ص ٢٢٣
(٣) البحث عن الذات ص ١٦

كانت حادثة الكبريت مع البقال وزبائنه ، والاصرار على تسميته كسفريتا أشبه بالعناد ، أما إرادة التحدى على وجهها الصحيح فقد بدت واضحة عندما أصبح رئيسا للجمهورية اذ يقول « منذ أول يوم توليت فيه استيقظت إرادة التحدى » ثم يقول « انها لم تنم يوما طوال السنوات السابقة فهى إحدى مقومات شخصيتى » • ثم يشير الى أن تركة عبد الناصر وما حملت من أحقاد وبغضاء ، كان من شأنها أن تثبط الهمم ولكنها « شحنت إرادة التحدى عندى فدعمتها وأيقظتها بحيث لم تضعف أو تغفل لحظة واحدة منذ أن توليت حتى الآن » [١] ••

كان الإصرار فى قضية الكسفريت أبرز معالم شخصية السـادات •••

وكان للكسفريت أثر واضح فى تاريخ مصر منذ الرياسة الأولى للسادات حتى مضى إلى وجه ربه فى موجة من العنف لم تعرفها بلادنا منذ أجيال •••

والكسفريت ـ كما تعلمون ـ ينير المكان ويقهر الظلام ••

والكسفريت ـ كما تعلمون أيضا ـ يلسع ويحرق فى بعض الأحيان •••

فلنر معا كيف كان الكسفريت نورا وكيف كان نارا ؟ •••

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢١

الكسفريت نوراً

اذا كنا فى عهد السادات على غير اتفـــاق معه فى بعض شؤون الداخل ، فاننا لا يمكن إلا أن نحنى له الرأس توقيرا وتقديرا على ما قدمه لمصر والمصريين من أياد بيض فى مستهل أيام حكمه عندما تولى السلطة ، ونشيد بسياسته الخارجية التى ردت لنا مكانتنا الرفيعة بين الأمم والشعوب •

لقد جاء السادات بعد سنوات مظلمة عاشها خيرة المواطنين بين معتقل وسجين ، وبين مجروح فى شرفه أو مقهور فى ماله ، وعاشها سائر أفراد الشعب على فيض من الأكاذيب والأباطيل ، وأطعموا شعارات لا تغنى ولا تثمر من جوع ، وعصفت السلطة بقيم مصر ، فاذا القانون فى إجازة ، لا حرمة لحر ، ولا صون لكرامة فرد ، وأصبحت السرقة والنهب واستغلال النفوذ وتهريب الأموال واغتصاب الحرائر وجرح رجولية الرجال ، قاعدة الحياة وأمرا طبعياً لا يستنكره السلطان •••

جاء السادات ، وكان قد أمضى سنوات الى جانب سلطان ذلك الزمان ، مستنكرا بقلبه كل ما كان يرى ويسمع ، فاذا ما تمت له البيعة استيقظت فيه « إرادة التحدى » التى عرفها

فى نفسه منذ كان صبيا جاء من الريف ليغيظ البقال وزبائنه كل يوم بشراء علبة من الكسفريت •

جاء الى السلطة فى استفتاء لعله الاستفتاء الوحيد الدقيق منذ قامت الثورة ، اذ كان عدد الرافضين له نحو ثلث مليون مواطن ، وكل انتخاب أو استفتاء جرى بعده وقبله كانت حصيلته دائما تكاد تكون مائة فى المائة ! اذ كان المعارضون عادة بضعة آلاف تعد على أصابع اليد الواحدة أو اليدين معا فى أحسن الفروض ، هكذا قال لنا المسئولون عن الاستفتاءات من الوزراء •••

ماذا فعل السادات يوم بدأت أيامه ؟

تحدى عصابة سلفه وبطانته ، فرفض أن يقرأ تقارير التجسس [1] التي كانت عيون سامي شرف تجمعها فيقوم بعرضها على الرئيس السابق صباح كل يوم ، وهى تقارير لا تعنى بالأحداث العالمية أو الشؤون السياسية أو تعالج نتائج الهزيمة والعار ، أو تحكى معاناة الشعب وتشير بالعلاج ، بل كانت تقارير تسرد أسرار الناس ، أى ناس ، وتكشف حياتهم الخاصة ، وهى بيانات فارغة يسعد لها المراهقون ويلتذ بها التافهون •

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٠

وأمر السادات بالكف عن كتابة هذه التقارير ...

ثم أعلن بعد أيام من توليه الحكم إلغاء الحراسة ، وكانت سيفا أصلت على المعارضين فانتزعت بمقتضاها أموالهم وعقاراتهم وأطيانهم ، وقذفت بهم الى الشارع ليناموا فى العراء ويتضوروا جوعا ، ومن كان سعيدا منهم رتبت نفقة له ولأفراد أسرته تكفيهم سد الرمق بالعيش الحاف ...

وكان إلغاء الحراسة عملا كريما ينير تاريخ السادات ...

وقامت معركة مروعة بينه وبين من أطلقوا عليهم عبارة « مراكز القوى » حول بعض الأمور السياسية ، وكانوا يريدون الرجل مطية لهم مثلما كان عبد الناصر يوم هده المرض فى أخريات أيامه فترك لهم الحبل على الغارب ، وهو على أي حال — رحمة الله وغفر له — لم يكن فى دخيلة نفسه يتأذى مما كان يرتكب باسمه وفى ظله من منكرات وآثام ، وأخطرها كان التسليم للروس بمقدرات مصر فى كل أمر وفى كل مكان ، وهى حالة لم تعرفها بلادنا حتى فى أعتى أيام الاحتلال البريطانى الذى استمر بضعة وسبعين عاما لم يكف فيها المصريون عن الجهاد والكفاح .

وحسم السادات الأمر وكانت كل السلطة فى أيدى خصومه ، فانتصر عليهم بلا سلاح وفى جعبتهم كل الأسلحة ،

الجيش والشرطة والإعلام ، ولكن الله سبحانه كان الى جانبه ، بل قل كان الى جانب مصر وأحرارها ، فكان النصر للسادات ، فأزال الغمة عن كاهل الشعب ، وتخلص الناس من الطغمة الباغية التى حكمت مصر زهاء ثمانية عشر عاما ، وحكمتها بالعصا والسياط ، والسجون والمعتقلات ، واهدار آدمية الإنسان ، فى جيل وقعت مصر فيه وثيقة دولية تتعهد فيها بالحفاظ على حقوق الانسان ؟ ! ...

وكان النصر فى تلك المعركة نصرا لمصر وأحرارها فى كل مكان ...

لقد كنا مختلفين مع الرئيس الراحل فى بعض شؤون الداخل ، ونحسب على المعارضة ، ولكن أية معارضة ؟ انها المعارضة المجردة من الحقد ، المعارضة التى تبنى ولا تهدم ، المعارضة التى يدفع اليها أولاً حب مصر ، وثانيا الأمل فى الرجل الذى لا نريد له أن يخطىء ، أو يتنكر لمبادئه السامية التى سجلها فى كتابه « البحث عن الذات » وكلها تتغنى بالحب والجمال ، وزرع الخير فى النفوس لا زرع الخوف ، وحماية آدمية الانسان لا تحطيمها واهدار كرامتها .

نعم ، نحن خالفنا السادات ، بيد أننا لا يمكن أن ننكر فضله فيما صنع لمصر والمصريين ، وما قدم لنا من الأيادى التى لا ينكرها انسان .

كانوا يريدون له أن يسير على خط عبد الناصر فرفض ، واستنكر أن يستمر الناس « مساخيط » كما كانت الحال فى عهد سلفه ، وأن تكون وشائج الصلة بينه وبين مواطنيه الخـوف والحقد ، وقال للبطانة الناصرية إنه وصاحبه الذى حكم نحو عشرين عاما يختلفان « مائة فى المائة » ولا يمكن أن يكون صورة منه أو صدى له بأى حال [1] .

لا يمكن أن ننسى للسادات مواقفه الرائعة فى خدمة بلاده ، وان نسينا أو تعمدنا النسيان ، فان التاريخ لن ينسى له تلك المواقف الرائعات ...

كيف ننسى أنه الحاكم الذى حطم آلات التسجيل وحرق أدوات التصنت والتجسس ، وأخلى السـجون والمعتقلات من عشرات الألوف الذين نزلوها عقابا على وشاية كاذبة أو مزحة أطلقت فى عبد الناصر أو نكتة قيلت فى واحد من حوارييه ، ولم يقف عند ذلك بل هدم تلك السجون والمعتقلات .

كيف ننسى أنه ألغى العزل السياسى عن آلاف المعزولين ليشاركوا فى العهد الجديد بما لديهم من ملكات خلاقة وأفكار بناءة ، ومعظمهم من رجال الفكر والأعمال ، وكان قد حكم عليهم

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٠

فى العهد الناصرى بالموت الأدبى ، فحظر عليهم العمل فى مصر أو السعى وراء الرزق خارج مصر ، وأمرت الصحف ألا تذكر عنهم شيئا أو تردد اسما من أسمائهم ، تماما كما كان يفعـــل أباطرة الرومان منذ ألفى سنة فى عهود الظلم والطغيان .

كيف ننسى أنه رد الموظفين المفصـــولين ظلمـــا وغدرا الى وظائفهم ؟

كيف ننسى أنه رصد الملايين معاشا للملايين الذين كانوا عيالاً على بلادهم عندما يعجزون عن العمـــل ويزور عنهم الزمـــان ؟

كيف ننسى أنه حرر مصر من الاحتـــلال الروسى فطـــرد جيشهم وكان عدده سبعة عشر ألف خبير ، وحرر موانى مصر ومطاراتها العسكرية التى كانوا يحتلونها ولا يسمحون حتى لقادة جيشنا بدخولها فجعلوا هؤلاء القادة أذلة فى ديارهم ، عاجزين عن أداء التزاماتهم ؟

كيف ننسى أنه أعاد ثقة العالم فى بلاده ، فأصبحت الدنيا تتحدث عن مصر بكل الحب والإيثار ، وأقبلت بمالها لتساهم فى البناء والتعمير أو التصنيع أو المشاركة فى توفير الغذاء أو غير ذلك من خدمات اضطر الى حبسها عنا فى العهد الناصرى الغرب والأمريكان ؟ واذا كان هذا الانفتاح تعوقه أو تحد من آثاره

الطيبة المرتقبة بعض العناصر ، فعندى أنها ذيول مراكز القوى التى لم يستطع الرئيس السادات — حتى يوم مضى — أن يصفيها أو يتخلص منها وهى فى كل مكان ، من منصب الوزير الى مقام الخفير ؟ ...

ثم كيف ننسى « إرادة التحدى » التى تمثلت فى حرب أكتوبر ، فانتصر جيشنا بعتاد ضئيل وبعضه متخلف ، على اسرائيل أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط ، وكانت خزانة مصر صفرا ، وروسيا قد حبست عنا ما طلبنـــاه من أدوات القتال ، وليس هناك تعويض لقذيفة نطلقها أو دبابة نخسرها أو طائرة يدمرها العدو ، ومع ذلك كله فإن السادات قاد جيش بلاده فعبر قناة السويس ودمر خطوط العدو وتوغل فى صحرائنا المحتلة فحرر طرفا منها ، وكاد أن يحررها جميعا لولا اشـــتراك الولايات المتحدة الأمريكية فى تلك الحرب بعتادها المتطور الذى قدمته لعدونا بسخاء ؟

كيف ننسى حرب أكتوبر التى ردت كرامتنا وثأرت للهزيمة فى عهد عبد الناصر ، وتوجت هام العرب بتاج النصر ، وحولت الدموع من الأسى الى دموع من الفرح ، وشغلت الدنيا بشجاعة المصريين ، وأثبتت للشانئين والملحدين أن الله أكبر ، لا بهتاف الجند عند العبور وتحطيم خط بارليف ، بل بالخواتيم الطيبة التى أكدت أن الحق سبحانه أكبر وأكبر وأكبر ؟ ...

نحن لا نستطيع أن نلم بأفضـــال « الكسفريت » فى صفحات ، اننا نذكر ملامح لنور الكسفريت الذى قهر ظلام حياتنا وأنار الابتسامة على شفاهنا ، ونذكره لا لمن عاش قبل حركة الجيش أو عاش بعدها ، فأولئك وهؤلاء يرون رأيى وان اختلفت أو اتفقت النيات •

انما أسجل للبراعم التى بدأت تتفتح كيف كان الكسفريت نوراً فى أيامهم ، راجيا لجيلهم أن يسيطر الكسفريت ولا تؤذيهم ناره ، لاسعة أو حارقة ، فان أكبادنا الحابية وشبابنا الغض جديرون بحياة هانئة بعد أن قدم آباؤهم وأجـــدادهم دمهم وحياتهم لينشأ أبناؤهم وأحفادهم شعبا من الأحرار لا دمى من المساخيط كما كان الحال فى جيل عبد الناصر الذى صوره لنـــا السادات فى كتابه البحث عن الذات •••

أصحاب
الدكتوراهات والقلاطات

عندما تجاوز المرحوم الشيخ عاشور حده ــ وكان واحدا من نواب الأسكندرية فى مجلس الشعب السابق ــ وتهجم على الرئيس السادات فى المجلس بألفاظ استنكرتها المعارضة الوفدية ، واستنكرها حزب الوفد فى احدى اجتماعاته ، سمعنا أن مجلس الشعب فى طريقه الى فصل الرجل من عضويته تأديبا له ونذيراً لغيره من النــواب •

والذى أعلمه فى تاريخنا الدستورى أن الدســتور يضفى حصانة على أقوال النواب داخل مجلس النواب ، وأنه لا يجوز أن يؤخذ عضو بما يقول مادام عضوا فى المجلس ، ولا يحاسب مهما يصدر عنه من « رذالات » أو « سفالات » كما كان يصف الرئيس السادات خصومه من أصحاب الدكتوراهات ! •••

وقد ارتكب العقاد يوم كان عضوا فى مجلس النــواب فى الثلاثينات شيئاً من هذا الذى فعله الشيخ عاشور ، فدعا الى تحطيم رأس الملك فؤاد ان هو فكر أو حاول العبث بالدستور ، وحفظها له الملك ، وأعد له « كمينا » بعد حل البرلمان ، وقدمه

للمحاكمة فصدر حكم بحبسه تسعة شهور قضاها العملاق فى السجن رافع الرأس كأشجع ما يكون الشجعان .

عندما سمعت وقرأت فى الصحف أن مجلس الشعب فى طريقه الى فصل الرجل عز على أن يحدث هذا فى عهد السادات فبعثت اليه ببرقية أستغيث به وقلت فيها « فى قضية الشيخ عاشور أذكر أن الله سبحانه قد أقسم بالكاظمين الغيظ والعافين عن الناس فكن واحداً منهم وابذل سعيك الحميد عند مجلس الشعب حتى لا يفسد غضبه حياتنا الدستورية » [١] .

أنا لا يعنينى حملة الذين شرعوا أقلامهم أو أطلقوا ألسنتهم فى قضية الشيخ عاشور ، فأدوات الإعلام وأبواقها تؤدى واجبها أحسن الأداء فى مثل هذه الأمور التى تسعد السلطة وترضيها .

وكان بغيضا الى نفسى أن ينافق معلم فيضع فى امتحان اللغة العربية فى مدرسة شبين الكوم الثانوية موضوعاً انشائيا يستهدف منه أن يكتب التلاميذ حملة على الشيخ عاشور [٢] .

كل هذه الألسنة أصفار لا يعنينى أمرها ، وانما هزنى

---

(١) ارسلت البرقية فى ١٩٧٨/٣/٢٣

(٢) نقلا عن جريدة الاحرار فى ١٩٧٨/٥/٨

وآلمنى أن أسمع فى خطاب للرئيس عقب فصل الشيخ من عضوية المجلس ، حملة على قطاع عريض وخطير من أبناء الشعب ، وهم « حملة الشهادات والدكتوراهات والقلاطات » [1] .

من هم أصحاب الشهادات والدكتوراهات والقلاطات ؟

انهم أولئك الذين لم يناموا ليلة ١٤ مايو ١٩٧١ حتى تحقق النصر للرئيس السادات وانتصر على الفئة الباغية التى دبرت بليل الإطاحة به ليستردوا مكانتهم المرموقة التى كانت لهم فى عهد الرئيس السابق ، فتستأنف الثورة من جديد لونها الأحمر القانى ، اذ أعدوا ــ كما قيل ــ ثبتاً بنحو عشرين ألف مواطن من أساتذة الجامعات والمحامين والمستشارين والمعلمين والصحفيين وأصحاب الأعمال ورجال السياسة القدامى وغيرهم من « أصحاب الشهادات والدكتوراهات والقلاطات » ليعدموهم فى بيوتهم ، هم ومن يلوذ بهم من الزوجات والأبناء والأتباع ..

وقف أصحاب الشهادات والدكتوراهات والقلاطات ، وهم الذين تقوم اليوم على أكتافهم الدولة باعتبارها دولة العلم والايمان ، وقفوا الى جانب الرئيس الراحل ، وكانوا أشد الناس حماسة لقضيته ، من كان منهم فى مصر ومن كان منهم فى

---

(١) جاء ذلك فى خطاب القاه الرئيس فى مجلس الشعب فى ابريل ١٩٧٩

الوطن العربى أو فى المهاجر أو فى البعثات أو فى أى مكان ، هؤلاء هم أنصـــاره المجردون من الدوافع والأغراض الذين تولوا قضيته بالشرح عند عامة الناس ، واستلوا أقلامهم فى الصحف والكتب وأطلقوا حناجرهم فى البيوت والمنتديات يحيون الرجل الحر الذى أهداه القدر لمصر ليرفع عنها الذل والهـــوان ويردها الى الطمأنينة والسلام .

وكان أصحاب « الشهادات والدكتوراهات والقلاطات » يصفون الصفوف ويتقدمونها فى مظاهرات الطلبة والعمـــال ، وكانت نقاباتهم رفيعـــة المقـــام كنقابات المحامين والمعلمين والمهندسين والصحفيين وغيرها تبرق للرئيس معلنـــة تأييدها ومباركتها لسياسته الرشـــيدة فى أمور الداخـــل والخارج على الســـواء .

ما الذى ارتكبه من آثام هؤلاء المثقفون والمتعلمون حتى نسميهم يوماً بالرذالات ويوما بالســـفالات ونعرض بهم فى الخطب والمقالات ؟

كيف تقوم دولة العلم وأصحاب العلم يحملون على أكتافهم كل هذه الصفات ؟

ان بعضهم لاشك يخالف النظام فيما يشرع من قوانين

أو يفرض من اجراءات ، ولكن اختلاف الرأى لا ينبغى أن يفسد للود قضية كما يقول أصحاب الحكم والأمثال •

ان الخلاف بين الراعى والرعية ، ومراجعة السلطان فيما يصدر عنه من قرارات أمر طبيعى قالت به شرائع السماء ، وعلمنا ديننا الحنيف أنه من حق الرعية أن تعترض وتناقش وتواجه ولى الأمر ، ولنا فى الفاروق عمر — مادام الرئيس الراحل كما كان يقول يتأثر خطاه — المثل الصالح لرحابة الصدر وقبول التوجيه من الرعية ، والاعتراف بالخطأ حتى ليعلنه أمير المؤمنين فى سماحة فيقول أصابت امرأة وأخطأ عمر •••

ان الخلاف بين الراعى والرعية دليل على سلامة الحكم ، وليس من المعقول أن يمضى أكثر من أربعين مليونا مؤيدين لكل خطا الحاكم أو الزعيم وإلا كانوا شعبا من « المساخيط » وهو ما عابه الرئيس الراحل على سلفه حين أخذ عليه سياسته التى جعلت من المصريين شعباً من الدمى لا تشعر ولا تفيق •••

اننا حين نفتح آذاننا لنسمع رأى خصومنا ، ونأخذ منهم ونعطى لهم ، فتلك شهادة للنظام برحابة الصدر وسعة الفكر ومؤشر على أن أمور البلاد فى أيد كيّسة تحسن مزاولة السلطان •

ان اختلاف الرأى بين الحاكم والمحكوم علامة على أن

الديمقراطية تسود حياة الناس ، وأنهم يعيشو حقـاً مناخاً حراً وأن الأمر بينهم شورى ، وهو ما دعا اليه الإسـلام وارتضته الشعوب الحرة ناموسـا للجماعة فى طرائق النظر للأمـــور •

ان أصحاب « الشهادات والدكتوراهات والقلاطات » قاربوا المليون عدا فى احصائية لجريدة الأهرام [1] فان تأذوا من الصفات التى ألصقت بهم تأذى معهم خمسة ملايين على الأقل وهم أبناؤهم وزوجاتهم وأصحابهم وعارفو فضـلهم من عامة النـاس •

ولمـا كنت واحداً من أصحاب الدكتوراهات ، فان مجتمعى لا يضم إلا أمثالى من أصحاب الشهادات أو أصحاب الرأى والفكر فى البلاد ، وأكاد أجزم بأن أحدا من أفراد هذا المجتمع لم يفهم معنى « القلاطات » ! وان كان لى فى تفسـيرها رأى لا يضير أصحاب الشهادات والدكتوراهات ، بل لعل تفسيرى يعنى مدحاً لهم حين تقرن « القلاطات » بهم فى معرض التبكيت على ما يصدر منهم من نقد أو اعتراض •

وأكبر ظنى أن لفظ « قلاطات » ليس لفظا عربيا ، وهـو

---

(١) الاهرام فى ١٩٧٩/٦/١٨

منقول عن الكلمة الفرنسية Les élites وتعنى الشخصيات اللامعـــة فى كل مجتمع متحضر ، ولمـــا كان لفظ (ايليت) لفظ ناعم يناسب الفرنسيين فقد حوره المصريون الى « قليط » ومنه جاءت الصفة « قلاطة » ومن الصفة جاء جمع التكثير « قلاطات » ثم قيلت تمييزا لأصحاب الشهادات والدكتوراهات ! •••

لعل أساطين العلم لا يحزنون بعد هذا التفســـير ، انه تفسير يشرح مكان اللفظ الجميل فى بيان مقامهم المرموق عند النـــاس ! •••

المؤيدون الرافضون

رأيى أن الاستفتاء الذى جرى على اتفاق كامب ديفيد أو معاهدة السلام كان سليما الى حد كبير وان عابته المبالغة فى عدد المؤيدين ! .

ان الأغلبية التى وثقت هذه المعاهدة بموافقتها عليها ، لم تكن أغلبية مصنوعة أو اقتحمت على صناديق الاستفتاء أوراق التزوير بلا حساب كما جرت العادة فى معظم ما شاهدنا من استفتاءات أو انتخابات ...

واذا كان الشعب قد وافق على المعاهدة بحماس ، أو رضى عنها طرف منا مع بعض التحفظات ، أو رفضتها أطراف أخرى ، فهو أمر يتفق وطبيعة الأشياء ، ولا ينبغى أن يثير الرفض حفيظتنا حتى نفقد أعصابنا ، فالمعاهدة ليست الثور الذى عبده قدماء المصريين ، أو اللاّت والعزّى وسائر الأصنام التى سجد لها كفار العرب قبل الاسلام أو هى الكعبة لا يطوف بها إلا المطهرون ! .

لقد مزقت المعاهدة السيدة جيئولا كوهين زعزع [1] عضو

---

(١) هى صاحبة مشروع القدس الموحدة الذى وافق عليه الكنيست منذ أكثر من سنتين .

الكنيست فى محضر من الرئيس كارتر وهو يلقى خطابه فى نواب اسرائيل ، واعتبرت الموافقة عليها كارثة حلت ببلادها ، ومضت تحمل عليها فى الصحف وفى كل صقع وناد ، ومع ذلك لم يصبها أذى بفعل أو يلقاها المختلفون معها بقذائف من الشتائم العامرات بالحقد والتجريح ...

وكان فى مصر أيضا تيار ضئيل ضد المعاهدة خافت الصوت محبوس بين جدران البيوت لا يجد وسيلة لإعلان رأيه ، ولم يكن رأيه الذى كنا نخالفه فيه خطأ كله ، أو نزوة أملتها الرغبة فى اللجاجة ، أو دعت اليها كراهية للنظام والحكام .

وقد بدأ هجوم أصحاب السلام على الرافضين للمعـــاهدة ضارياً ومستمراً صباح مساء ، مع أنهم خمسة آلاف معارض ! بينما كان المصوتون الى جانبها عشرة ملايين فى الاستفتاء الذى أجرى بشأنها وأشرف عليه وزير الداخلية وأذاع نتائجه على الملأ ، كما أن من شجبها من أعضاء مجلس الشعب السابق لم يتجاوز عددهم سبعة عشر عضوا .

ان من حق أى مواطن أن يقول رأيه وخاصة فى القرارات المصيرية ، سواء كان هذا المواطن فرداً عادياً أو عضواً فى مجلس النواب ، وكان علينا أن نبارك هذه المعارضة ونحتفل بها فهى اعلان للعالم كله يبين له أن فى مصر من يستطيع أن يقول (لا)

وان كانوا قلة ضئيلة ، وكان يجب أن نتخذ من موقفهم ذاك سلاحا نشهره فى وجه اسرائيل ، ولو كنت رئيس الوزراء فى ذلك الوقت لأثريت المعارضة ودعمتها وأوعزت الى بعض نواب حزبى بالانضمام الى جبهة الرافضين حتى تعرف اسرائيل أن هناك رأياً عاماً قوياً يعارض الاتفاق معهم ، وهى ورقة يلعب بها السياسى الحصيف عندما تمضى المفاوضة من أجل القدس وفلسطين •

ولكننا للأسف الشديد لم نسلك هذا الطريق ، فاستمرت الحملة الضخمة الضارية على خمسة آلاف مواطن نحو شهر أو يزيد ، تكيل لهم الشتائم وتصمهم بالغدر والخيانة ، وتصفهم بالجحود والعمالة فى الخطب والمقالات والاجتماعات ، وفى الاذاعات والتليفزيونات ، وخسرت مصر ملايين الجنيهات تكلفتها فى هذه الحملة وهى كما نعلم فى ضيق اقتصادى شديد •

كانت هذه الحملة خطأ إعلاميا لأن ضراوتها أبرزت للعالم صورة ضخمة للمعارضين وكأنهم خمسة ملايين لا خمسة آلاف ، وأن النواب الذين رفضوا المعاهدة فى مجلس الشعب السابق كانوا مائة وسبعين نائبا لا سبعة عشر عضوا تحجبهم أغلبية تكاد تشبه الإجمـاع ؟ ! •••

وفى الوقت الذى اعتلينا المنابر لنصف المعارضين للمعاهدة بالعمالة والخيانة ، وأطلقنا الصحف وكل أدوات الإعلام الأخرى

لتندد بهم ، ودفعنـا الوزراء والمحافظين وقيـادات الحـزب الحاكم إلى اتهامهم بأخطر الاتهامات ، كان أستاذ اسرائيلى من جامعة القدس يجتمع بأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى ، متهماً حكومته فى اسرائيل بأنها تنتهك حقوق الانسان بمصادرة أموال العرب وأراضيهم فى غزة والضفة الغربية والجولان .

واذا كان المعارضون للمعاهدة فى مصر عملاء وخونة ، فما الحكم فى قضية هذا الأستاذ حين يعود لوطنه فى اسرائيل ؟ .

وتأسيا بمنطقنا فى حرية الرأى والتعبير ، فان هذا الأستاذ يجب أن تـعلق له المشانق ! فهو عميل للعرب والمصريين ، وخائن لوطنه اذ يندد بحكومة هذا الوطن عند غريب لا ينبغى أن تكشف عنده عورات الحكومة ، وحكومة اسرائيل لاشك تحظى بأغلبية لم يعبث بها عابث حين أجريت انتخاباتها فجاءت سليمة ليس فيها ما يشـين .

ولكن الرجل عاد الى اسرائيل ، واحتفل به الحمائم من الاسرائيليين ، وحيته صحفهم وأذاعت أدوات الإعلام ملخصاً لحديثه مع الشيوخ الأمريكان فى الراديو والتليفزيون ، واستأنف الرجل رسالته أستاذا فى جامعة القدس وقد أحاطه بالاحترام والتقدير الزملاء والتلاميذ ! ...

لمثل هذا تدعى اسرائيل أنها وحدها البلد الديمقراطى بين حكومات المنطقة من الخليج الى المحيط ...

* * *

ووسط الحملة على خصوم المعاهدة ، يتعرض أصحاب السلام الى موضوع بعيد كل البعد عما كنا بسمع ، وينتقل الحوار فجأة من حوار يجرى — وان كان حوارا من طرف واحد — حول كامب ديفيد ومعاهدة السلام إلى تبكيت المعارضين من « أفنديات » القاهرة بأنهم يستعينون على القيظ بمكيفات الهواء ويعالجون القر بمياه السخانات ! ...

وعجبت لهذا التبكيت يوجه الى الرافضين للمعاهدة ، وكان الواجب أن يوجه الى الدولة نفسها ، فالذين يستمتعون بمكيفات الهواء هم الوزراء وآلاف من وكلاء الوزارات ومديرو العموم فى المصالح والوزارات ، ورؤساء مجالس الادارات فى مؤسسات القطاع العام وشركاته ، وغيرهم فى قصور الدولة ومواقع السلطان ، وان حصل مواطن عادى على جهاز تكييف فانما يحصل عليه من حر ماله وبعد كفاح يطول سنين وسنين ..

لو اننى هاجمت الذين يملكون مكيفات الهواء أو سخانات المياه لا تهمنى المدعى الاشتراكى بأننى أعرض السلام الاجتماعى للخطر إذ أدعو إلى اثارة الطبقات ونشر البغضاء فى نفوس الجماهير التى لا تملك مكيفات ولا سخانات ؟ ! ...

وعجبت أن تهاجم الدولة من يملكون السخانات ورئيس الدولة يوظف كل ما جنى من كتاب « البحث عن الذات » فى

تطوير حياة قريته ميت أبو الكوم ، ويضرب بذلك المثــل على الوفاء النادر بين الأوفياء نحو الأرض التى نشأ عليها وجرى فيها حافياً حين يلهو ، وشارك فى زرعها وحصادها حين يجد ، ونام على فرن الدار ليدب الدفء فى جسمه [١] واستطاع بعــد خمسين عاما أن يوظف أحدث تكنولوجيا عرفها الإنسان فى إدخال المياه الساخنة فى بيوت قريته حتى أصبحت ميت أبو الكوم القرية النموذجية التى أرجو أن تحظى جميع القرى فى مصر بمثل هذا الاهتمام وهذا الرخاء .

وإذا كان الفلاحون فى قرية ميت أبو الكوم يستمتعون بالمياه الساخنة ، فما أظننا نبخل على « أفنديات » القاهرة من أهل العلم بمثل هذه المياه إن تمكنوا من امتلاك سخان ، وهم الصفوة المرتجاه فى الشدائد والملمات ، وهم أعمدة دولة العلم والإيمان ، وهم سكان العاصمة على أى حال ...

ومع ذلك كله فإن الدولة تعلم أن الفلاحين فى القــرية السعيدة ، كل الفلاحين — كما تقــول الصحف وتتحدث الروايات — يستمتعون بالمياه الساخنة ، بينمــا أفنديات القاهرة وسائر المدن الرئيسية لا تعرف إلا قلة منهم ميــاه السخانات .

---

(١) من حديث الســادات فى الفصــول الأولى من كتابه « البحث عن الذات » .

واذا كانت الدولة تهاجم من يملك مكيفات الهواء أو سخانات المياه وتعتبر ذلك أمرا إداً يعاب عليه أصحابه ، فهى وحدها المسؤولة عن هذا الفساد ! فقد أقامت المصانع لتصنيع تلك الأدوات ، ولم تقف عند انشائها بل تنشر صحفها مباهية بنشاط تلك المصانع التى أنتجت آلاف السخانات والمكيفات ، وأن شركة « كولدير » وحدها ، وهى من شركات القطاع العام الذى تديره الدولة ، قد باعت فى سنة ١٩٧٨ بسبعة ملايين جنيه ونصف المليون مكيفات للهواء وبلغت أرباحها ستمائة وواحداً وأربعين ألف جنيه [١] .

وإننا لنظلم حملة الشهادات من سكان القاهرة أشنع الظلم إن سخرنا منهم ، وادعينا أنهم وحدهم القادرون على شراء السخانات والمكيفات ، وإنهم فى الحق ليأتون فى ذيل القادرين على تبريد الهواء أو تسخين المياه ، اذ كيف يستطيع قاض أو مستشار أو أستاذ جامعى أن يشترى سخاناً أو مكيفاً للهواء وأجره الشهرى لا يزيد عن مائة وخمسين جنيها ، يستقطع منه خمسه للمعاش والضرائب وغير ذلك من ضروب الخصم على المرتبات ؟ ويضيع الرصيد الباقى فى تعليم الأبناء والبنات فى المدارس والجامعات ، وفى الكساء والطعام ، وفى أجور المسكن والمواصلات ، وعلاج الأمراض والأوجاع .

---

(١) الاهرام فى يونيو ١٩٧٩

يا لهم من « أفنديات » عراهم الفقر والإدقاع ! ...

« أفنديات » القاهرة كما يعرفهم سكان القاهرة وعواصم المحافظات هم المبيضون والسمكرية والمنجدون والنقاشـــون والسباكون والجزارون وسائقو التاكسيات وغيرهم من أصحاب الحرف الذين يتجاوز دخلهم الشهرى المئات أو الألوف من الجنيهات ، ولا يقل هذا الدخل عن ذلك فى أى حالة من الحالات .

هؤلاء هم المترفون القـــادرون على شراء الســـخانات ومكيفات الهواء ، والفيديو والملون من التليفزيونات والمستورد من الثلاجات والغسالات ، والذين لا تعرف مصلحة الضرائب طريقهم ، وان عرفته عجزت عن اثبات ايرادهم العام .

كل هذه الحملة التى مزجنا فيها المعاهدة بالميـــاه الساخنة والهواء البارد ، انفجرت لأن خمسة آلاف مواطن وسبعة عشر نائبا قد عارضـــوها من بين عشرة ملايين أيدوها من المصريين كما يقول وزير داخلية ذلك الزمان فى تقريره للرئيس السادات .

ولمـــا كنت فيما أكتب من نقـــد لا أبغى إلا وجه الحق ، وأهدف الى صالح الحاكم والمحكوم معا ، مؤملا أن يسمع القائد أو الزعيم ما عند الرأى الآخر من أخبار الناس ، وأخبارهم عادة لا ينتقل اليه منها إلا وجهها المشرق ، لذلك أرجو أن تكون السلطة على علم بأن قطاعاً عريضاً من المصريين الذين تحمسوا للمعاهدة

وآزروها لا فى الاستفتاء فقط بل فى كل مكان وجدوا فيه رافضاً لها ، قد أصبحوا اليوم يؤمنون بأن رأى القلة المعارضة لم يكن رأياً فطيرا ، وأن هذه القلة كان لها بعض الحق فيما أبدت من تحفظات ، اذ أقبلنا على توقيع المعاهدة دون احتياط من الطرف الثانى وهو ثعلب مراوغ لا ثقة فيه ولا أمان ٠

ومعظم القطاع المؤيد الذى صبأ من المتعلمين والمثقفين الذين سحبوا تأييدهم للمعاهدة نتيجة لمواقف التعنت التى تقفها حكومة اسرائيل من قضايا القدس والأراضى المحتلة والتحديات اليومية فى بناء المستعمرات والسعى الى ابتلاع الأراضى العربية المحتلة وإضافتها الى بلادهم ومن بينها الجولان التى ضموها أخيرا بالرغم من صراخ العالم فى كل مكان ٠

ان الصابئين يمزقون اليوم معاهدة السلام فى صمت ، تماماً كما فعلت السيدة كوهين زعزع ، وإن عاونت حياتهم السياسية هناك على اظهار رأيها فجاء صاخباً عاليا ، وساعدتها حرية الإعلام عندهم ، والإعلام الاسرائيلى فى خدمة المواطنين مؤيدين كانوا أو معارضين ٠

ليست مراوغة اسرائيل فى النكوص عن السلام هى وحدها التى ردت القطاع العريض المؤيد للمعاهدة الى قطاع عريض رافض لها ، فإن مسيرة السلام كانت رغبة ملحة فى ضمير طبقات الشعب جميعا وان اختلفت الدوافع عند هذه الطبقات ٠

كان من يسمونهم مثقفين يتوقعون أن يكون السلام مفرق طريق فى حياتنا السياسية ، عنده تنطلق الحريات بلا حدود ، وتسود الديمقراطية بلا قيود ، فاذا هم يرون ردة عن القسط الضئيل الذى حصلنا عليه من الحرية ، ونشاطاً ملحوظاً فى تعويق الخطا الديمقراطية ، ثم وجـدوا فى أعقـاب السـلام « ترسانة » ـ كما يسميها الأستاذ الدكتور وحيد رأفت ـ من القوانين المثبطة للعزائم والتى تعـود بنـا الى الوراء عشر سنوات [1] ، وهى بديل للأحكام العرفية التى ألغوها والتى كانت رحمة وبركة اذا قيست قيودها بالأغلال التى جاءت فى ركاب ما استنوا من قوانين وتشريعات .

لقد كنت أول المصريين حماسة لخطا السلام التى خطاها الرئيس السادات ، بل ظهرت حماستى قبل أن أخطوها بشهور وشهور ولى فى ذلك فصل بعنوان (السلام) كان خاتمة فصول كتاب نشرته قبل أن تلوح فى الأفق رحلة القدس [2] أو يدور بذهن انسان أن ما دعوت اليه يمكن أن يحدث وأن تكون له وقائع يسجلها التاريخ على مدى الأيام ، وقد دعوت الرئيس السابق فى ذلك الفصل من الكتاب أن يحاور العدو ويتجه الى المفاوضة

---

(١) انظر مقال الدكتور وحيد رافت فى جريدة الشعب بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٨٠

(٢) راجع كتاب كلمة حـق للتاريخ (للمؤلف) ص ١٣٦ وما بعدها .

بديلاً عن الحرب حتى يعود لنا وفى جعبته رمال سيناء ، وعلى أمل أن تكون هذه الخطـوة بداية طريق يتم فيـه اسـتقرار الفلسطينيين فى دولة لهم ، وتسترد فيه سوريا جولانها ، ويعم الرخاء المنطقة التى شعت منها أنوار القيم والأخلاق بظهور الرسل والنبيين فيها من عهد ابراهيم الى خاتم النبيين عليه وعليهم السـلام .

لقد كنت أعتقد أنا ومن على شاكلتى من طبقة المتعلمين ، أنه لا أمل لمصر فى حرية أصيلة وديمقراطية عميقة مادامت الحرب أو حالة الحرب قائمـة بيننـا وبين اسرائيل ، فقـد كان الملك فى أيامـه والثـورة فى سنواتها يحبسـون الحرية والديمقراطية فى « حجرة مغلقة » حتى نكسب الحرب أو نلقى باسرائيل فى البحـر ! وكان حكامنا على مـدى أربعين عامـا « يواربون » باب تلك الحجرة تحت ضغط الشعب وخشية ثورته لتتسرب نسمات الحرية وروائح الديمقراطية ، ثم يعودون حين تهدأ الجماهير فيغلقون الباب من جديد ! ...

لذلك فرحنا نحن المتعلمين أو المثقفين كما يسموننا حين تمت خطوة القدس ووقعت معاهدة السلام ، فقلت فى كتاب آخر صدر منذ ثلاث سنوات « يجب أن يعلو صوتنا فقد كان خفيضاً حين طالبوا ألا يعلو صوت على صوت المعركة ، لقد انتهت المعـركة فاتركوا صوتنا يعـلُ فقد كان يتلجلج كحشرجة الأمـوات .. »

ثم طالبت بإلغــاء الأحكام العرفية التى عاشت فى ظلهــا الثقيل بلادنا نحو ستين عاماً حتى « أهلكتنا الملعونة » وإلغاء جميع القوانين الاستثنائية من ذراريها « تلك الولود لكل سيء وخبيث من قوانين وتشريعات » •

وطالبت بحرية الأفراد والجماعات فى انشــاء الصحف والمجلات ، وإلغــاء قانون الأحزاب واطلاق حرية المواطنين فى اختيار رئيس الجمهورية من بين اثنين أو من بين مائة ، وتعديل الدســتور بحيث يكون للنواب حق سحب الثقــة من الوزارة فتستقيل ، وحق اعتماد الميزانية وتعديل بنودها ان شــاءوا ، الى غير ذلك من مطالب يحرص عليها الأحرار فى كل مكان [١] •

وما أظن الذين تحمسوا للمعاهدة وقضية الســلام من الفاهمين الواعين قد تحمسوا إلا وفى ضميرهم كل هذه الأمانى المرتقبة بعد توقيع المعاهدة ، فاذا خذلتهم السلطة وأصدرت من القوانين والتشريعات عكس ما كانوا يتوقعون كرهوا المعاهدة ودوا لو بقى الحال على ما كان عليه الحال ، فقد كان الحال على الأقل خالياً مما استحدث من « تدابير » قبل إلغاء الأحكام العرفية ، والتدابير تعبير جديد يعنى فى الحق القوانين الاستثنائية التى لا تتماشى أبداً مع ما جاءت به ثورة التصحيح •

---

(١) الديمقراطية بين شــيوخ الحــارة ومجالس الطراطير (للمؤلف) ص ١٩٣ وما بعدها .

لقد ألغت ثورة التصحيح العزل السياسى فعادوا به فى استفتاء طريف إذ قاطعته الجماهير فكانت نتائجه لصالح الحكومة بنسبة تزيد عن ٩٩٪ ؟ ! !

وألغت ثورة التصحيح الحراسة على أموال المواطنين فعادوا وفرضوها بقانون ••• وكان الرئيس السادات قد ذكر لنا فى كتابه « البحث عن الذات » « أنه عندما ألغى الحراسة ، استقبل الناس — غير أولئك الذين كانوا قد وضعوا تحت الحراسة — كسائقى التاكسى مثلا ، استقبلوا القرار بحماس شديد وفرحة طاغية » [١] •

وألغت ثورة التصحيح الاعتقال وهدمت المعتقلات ، ثم عادوا الى الاعتقال بقانون ولكن فى مكان أمين ! والله أعلم أين ينام المعتقل ، على « برش » أو على سرير ؟ •••

وأطلقت ثورة التصحيح حرية القلم من سجنه الذى طال نحو عشرين سنة ، ثم عادت وأصدرت قوانين النشر والصحافة ليعود القلم حبيس « الجراب » القشيب ، مسترخياً فى صمت رهيب •••

وقالت ثورة التصحيح إن لكل مواطن أن يكتب ما يشاء

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢١

ويقول ما يشاء ، ثم أصدرت قانون المدعى الاشـــتراكى [١] •
يحاسب المواطن على ما يكتب ويقول ، تنفيذاً لقانون آخر
سموه قانون القيم والعيب [٢] فأصبح الناس يخافون ، لأن
العيب لا يتفق اثنان فى شـــأنه ، وما يراه البعض فضيلة قد
يراه المدعى الاشتراكى عيبا ، والمدعى الاشتراكى لا يقتـــل
ولا يعذب ، بيْد أن من سلطاته أن يضع تحت الحراسة مال
هذا البعض فيشل نشاطه ويجيع أولاده ، ثم يقـــدمه الى
محكمة القيم التى يمكنها أن تعريه مما يملك فلا يجد ما يستره
بقية العمر أياماً كانت أو سنين •••

لقد حمل الرئيس السادات على عهد عبد الناصر فى كتابه
« البحث عن الذات » واتهمه بأنه نشر الخوف فى كل قلب ،
فمضى النـــاس أذلة حتى تحـــول المصريون الى شـــعب من
المساخيط ! •• ثم ردد أن النظام الناصرى أفقـــد المواطن
حريته ، والحرية كما يقول الرئيس أجمل وأغلى ما فى الحياة
« فلا يجب أن يشعر الفرد فى هذا المجتمع أنه تحت رحمة
أية قوة من قوى القهر ••• أو أن إرادته مرهونة بمـــا يريده
الغـــير » [٣] •

---

(١) ، (٢) راجع جريدة الشعب فى ١٩٨٠/٤/٢٢ فقـــد
نشرت نص قانون العيب ومحكمة القيم وسلطات المدعى الاشتراكى .
(٣) البحث عن الذات ص ١٠٣

ثم ذكر لنا الرئيس الراحل فى موقع آخر من كتابه أن القاعدة العريضة من الشعب لم تتحمس للقرارات الاشتراكية التى أصدرها عبد الناصر لصالح هذه القاعدة لأن « مجموع الشعب كان مازال يفتقد شيئاً هاماً فى حياته ... وهو الحرية ، فعندما لا يكون الانسان آمنا على نفسه لا يمكن أن يعوضه شيء عن هذا ... هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر الى يوم أن مات .. » [١] .

واذن فلا حرية ولا أمان فى ظل الخوف ، هذه حقيقة علمنا اياها الرئيس السادات فيما سجله من أحكام فى كتابه البحث عن الذات .

ان هذه القوانين التى ذكرنا طرفاً منها كانت هى الأسباب المباشرة التى حولت الصفوة المرتجاه من أنصار للمعاهدة الى رافضين لها ، وهو أمر لا أقصد به التشكيك بل هو أمر وضح فى كل حوار جرى بين رئيس الجمهورية السابق وبين أساتذة الجامعات [٢] أو بينه وبين أى فريق من أصحاب الفطنة والتمييز .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١

(٢) راجع الأسئلة العشرة التى وجهها أساتذة جامعة الاسكندرية للرئيس السادات ونشرتها صحف الصباح فى ٣١ أغسطس ١٩٨٠

أما أبنـــاء شعبنا من عامة الناس الطيبين الصـــابرين وأكثريتهم من الأميين ، فكانت أسباب سخطهم أشياء أخرى قد يتفق معهم فى بعضها الخاصة من المواطنين ٠

لقد كان عامة الناس يعتقدون أن المعاهدة التى زغردوا لها وصفقوا ، وأقاموا الزينات وأضاءوا من أجلها الثريات ، تحمل معها الرخاء وفى يمينها مصباح علاء الدين ! ٠٠٠

وعامة الناس معذورون فى اعتقادهم وخاصة بعـــد أن بشروهم بأن عام ١٩٨٠ هو الفيصل بين العنـــاء والرخـــاء ، وجاءت هذه البشرى فى أعقـــاب التوقيع على المعـــاهدة ، فربطوا بينها وبين أمانيهم وأحلامهم ، فالســـلام عادة يهيىء انتعاشا فى الاقتصاد فتمتلىء الجيوب وتسعد النفوس وتشبع البطـــون ! ٠

ولكن الأسعار أخذت تتضاعف ، وبعض الحاجيات مضت تقل أو تختفى من الأســـواق ، والعنـــاء فى المأكل والمســـكن والملبس يزداد يوماً بعد يوم ، ويكاد هؤلاء العـــامة ، يفقدون عقولهم وهم يرون بلادهم الزراعية تستورد القمح فيتضاعف سعر الرغيف ، ويرون من حولهم البحر المتوســـط والبحـــر الأحمر وبحيرات كبيرة توحش سمك إحداها ، والنيل يجـــرى من الجنوب الى الشمال ، ومع ذلك تهلل صحف الدولة بأن

الحكومة استوردت آلاف الأطنان من السـمك [١] بل تعلن إحداها فى احصاء رسمى أن مصر تستورد سبعين فى المائة مما يستهلك الناس من أسماك [٢] ومع ذلك فقد بلغ سعر الكيلو من بعض أصناف السمك أربعة جنيهات [٣] .

ان رئيس الدولة الراحل ، كان وحده لا يتوانى لحظة فى السعى لتحقيق الأمن الغذائى لمواطنيه ، غير أن الرئيس لم تكن فى يده عصا موسى يضرب بها الأرض فتثمر ، أو يتوجه الى السـماء فيتساقط علينا المن والسلوى .

ان الرئيس الراحل كان فى حاجة الى رجـال يؤمنون برسالته ، ويصغون بالمودة الى جهـاده ، فلا ينامون مـلء جفونهم والشعب جائع أو عار أو هائم فى عرض الطريق .

إنه كان فى حاجة الى رجال يرون فى الوظيفة تكليفاً لا تشريفا ، وعناء لا أبهة ، وعطـاء لا أخذا ، وجداً لا تقاعس فيه ، واخلاصاً من الأعماق لهذا الشعب الصبور الكريم .

فاعذروا عامة الناس إن توجعوا ... لقد صدموا مرتين ، مرة حين قالوا لهم ان السلام يحمل فى أذياله الخير والبركات ، ومرة حين أكدوا لهم أن سنة ١٩٨٠ هى الفيصل بين العنـاء والرخاء ، فكانت الأولى وهماً وسراباً ، وكانت الثانية تفاؤلاً نقضته كل الحسابات .

---

(١) الأهرام فى ١٩ فبراير ١٩٨٠

(٢) ، (٣) حدث هذا فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٨٠

العيب

كان المسؤولون حريصين أشد الحرص على اصدار قانون ينهى العيب عند أهل العيب ! وعندما وضـــع القانون ونشرته جريدة الأهرام قامت الدنيا ولم تقعد ، فالنقابات والهيئات ومؤسسات الفكر ثارت ثورة مضرية حتى اضطر السيد نائب رئيس الجمهورية (رئيس الجمهورية الحالى) الى اصـــدار بيان بأن ما نشرته الأهرام ليس صحيحا لأن القانون لايزال قيد البحث والدراسة •

ثم صدر القانون وصاحب صدوره نفس الرفض من الهيئات والنقابات ، وتولت صحف المعارضة محدودة التوزيع نقد هذا القانون فى موضوعية لا تخلو من المرارة واعلان الأسى للاتجاه بالحياة السياسية فى مصر الى ما قبل ثورة التصحيح •

وقرأت مع النقد المرير الذى نشر ، مواد هذا القـــانون ، فدهشت لحرص الحكومة على اصداره ، فقد كان لها غُنية عنه فيما عندها من قوانين •

ولا أدرى ماذا يعنى لفظ العيب ؟ فالعيب واللاعيب تفصل بينهما شعرة ! وقد يكون اللاعيب فى شارع مقبولاً ويصبح فى شـــارع آخر عيباً يستحق صاحبه الضرب بالنعال ! فإن تأبط

أحد ذراع قرينته على ضفة نيل الزمالك أو فى جاردن ستى فلن يرى الناس فى ذلك عيباً ، وان فعل ذلك على الضفة الأخرى من النيل عند امبابه ، أو فى حارة السد فى حى السيدة زينب ، اعترضه الرجال بالتنكيت والتبكيت وزفه الصبية بكلمات نابية لا تتفق وآداب الطريق ! ...

وقد يسجل كاتب عبارة نقد فى مقال أو كتاب ، فلا يرى أحد فيها غضاضة ، ولكن المسؤولين قد يرون فيها عيباً فيطلبون الى المدعى الاشتراكى أن يحقق مع الكاتب ويجادله فى شأن ما كتب أياما ، فان لم يقتنع حوله إلى محكمة القيم وإن لم يكن هذا فى الحق قد حدث من المدعى الاشتراكى الحالى على مدى السنوات التى شغل فيها منصبه ذاك .

وعندما راجعت نصوص قانون القيم أو قانون العيب ، لم أجزع لشيء مما تضمنته العقوبات التى نص عليها القانون لمن يثبت عليه العيب ، ومنها حرمانه من الترشيح للمجالس النيابية أو التصويت فيها ، وحظـــر عضـــويته فى الأحزاب ، وعزله من رياسة الشركات والمؤسسات وعضوية مجالسها ، ومجالس النوادى وغيرها ، ويسرى كل ذلك وغيره من عقوبات مماثلة لمدة موقوتة قد تطول الى خمس سنوات ..

أقول ، لم أجزع حين قرأت القــانون ، لأننى والحمد لله

لم أفكر يوماً فى عضوية مجالس البرلمان أو الأمة أو الشعب ، ولم أشارك بالتصويت فى أى انتخاب أو استفتاء منذ قيام الثورة ، ولا يعنينى أن أنتمى لأى حزب من الأحزاب القائمة ، فهى فى ذمتى لا تعدو أن تكون صورة من هيئة التحرير أو الاتحاد القومى أو الاتحاد الاشتراكى ، وكلها نشأت فى حجر السلطة ، وكلها تضم نفس الوجوه التى ساست الأمور منذ مطالع الثورة ، وكل حزب منها يعيش حتى اليوم فى ظل الشعارات التى سادت مصر منذ حركة الجيش الى يوم وفاة عبد الناصر .

أما عن رياسة الشركات والمؤسسات والنوادى وعضويتها ، فلست رئيساً أو مديراً لشركة ولم أكن قط ممن يجرون وراء هذه المناصب ، ولم أرنُ يوماً الى رياسة ناد أو عضويته ، وحتى نقابة الصحفيين التى انتسبت اليها زهاء نصف قرن ، طلبت تسوية حالتى عندما قامت المعركة حولها ، أتبقى نقابة أم تصبح نادياً يسترخى فيه الأعضاء ؟

أما عن حرمانى من السفر كما كان الحال أيام النظام الناصرى ، فلن يوجعنى ، اذ أعاننى الله سبحانه فتمكنت منذ كنت شاباً من زيارة معظم أنحاء العالم مرات ومرات ...

وانه لشىء عجب أن يضع المشرع هذه العقوبة فى

القانون ، بالرغم من أن السادات قبّح هذا الاتجاه يوم أن تحدث عن سياسة عبد الناصر ، فذكر أنه « لم يعد مسموحاً للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا فى أرزاقهم » [1] .

الخطير حقاً فى قانون العيب ، أن يطلب المدعى الاشتراكى فى عقاب المعارض أمرين تميز بهما عهد مراكز القوى ، أن يتحفظ على « جسده » فى مكان « أمين » ! ولا أعرف مكاناً أميناً غير بيت الإنسان ، وبما أن القانون لم يذكر « البيت » ، فيجوز أن يكون هذا المكان الأمين خارج البيت ، وحيرنى المكان الأمين حين تذكرت أن الرئيس السادات قد أغلق السجون وهدم المعتقلات ، فأين ترى يقصد المشرع بالمكان الأمين ؟ !

والأمر الثانى الخطير فى عقاب المعارض أن يطلب المدعى الاشتراكى ، وضعه هو وزوجته وأولاده تحت الحراسة ، أى حرمانه من التصرف فى ماله وعقاراته ومقتنياته ، ولا أدرى أترتب له نفقة كما كان الوضع أحياناً فى عهد عبد الناصر ، أو يترك هكذا فى مكان أمين لا شراب فيه ولا طعام ؟ ..

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٣

ولكننى عند مراجعة هاتين العقوبتين ، عدت وتذكرت أن هناك قضاة سوف يفصلون فى هذا الأمر ، وأن هؤلاء القضاة يجلسون على درجتين ، ولهم الأغلبية ابتداء واستئنافا ، فكل معارض برىء أو حسن النية مطمئن بذلك الى حسن الخواتيم •

وفضلاً عن ذلك ، فالمدعى الاشتراكى أصلا قاض له ضمير يرتفع به الى السماك ، وقد أثبت الرجـــل أنه من أنزه المستشارين الذين عرفهم تاريخ القضاء ، وهو رجل شجاع استطاع بعدالته أن يسقط وزارة حين أثم وزيرين فيهـــا ، وأخذ بأقفية بعض أعضـــاء مجلس الشعب الذين استغلوا نفوذهم ، ولم يقم وزناً لحـــق هذا المجلس فى أن يعفيـــه من وظيفته •

إنه رجل شهم لم يختلف فى أمره اثنـــان ، ولكن الناس تعلم أن الشجاعة والشهامة والعدالة عمرها فى بلادنا قصـــير ، ويخشون أن يلى المنصب واحد يفتقد كل هذه الصفات •

العيب
على لسان المسئولين

إنـــى أتســـاءل ؟

هل تشريع العيب قنن لعامـــة المواطنين وحدهم أو هـــو يسرى على الوزير إذا كان طعَّاناً لعَّاناً أو تصرف مع خصمه مستغلاً منصبه فى مبارزة فيها خصمه مجرد من كل سلاح ؟ ...

وقد أجاب السيد رئيس الجمهورية السابق على هـــذا التساؤل فى كلمة ألقاها فى مؤتمر الحزب الوطنى الديمقراطى خلال شهر أكتوبر سنة ١٩٨٠ ، يؤكد أنه يجب أن تتم مساءلة أى انســـان يرتكب العيب فعـــلاً أو قـــولا ، وحضَّ المدعى الاشتراكى على أن يسائله هو شخصياً إن جاءت شكوى فيـــه من مواطن .

وعندما يسود القانون فليس هناك مسؤول ذاته مصونة لا تمس سواء كان وزيراً أو خفيراً ، فالدستور سوانا جميعا كأسنان المشـــط ، فاذا صح النقـــد فى مسؤول فلابد أن يسأل هذا المسؤول مهما يكن مقامه فى السلطة أو مهما يكن قريبـــا

من السلطان وإلا عدنا مرة أخرى الى أيام النظام الناصرى حيث كانت السلطة فى أيدى مجموعة من صغار الفراعين ...

لقد ذكروا لنا فى الخطب والمقالات أن بعض الصحفيين والأدباء المصريين الذين يعيشون فى الخارج قد صدرت عنهم مقالات واذاعات معيبة فى حق النظام وفى حق مصر والمصريين ، وأنهم لابد سيحاكمون بمقتضى قانون العيب ، وأن تجريدهم من جنسيتهم وارد فى تفكير المسؤولين ، وذلك أقصى عقاب يلقاه مواطن من المواطنين .

أنا لا أدافع عنهم أو أؤثمهم ، بيْد أننى من حيث المبدأ لا أرى غضاضة فى أن يعبر أى مصرى عن رأيه سواء فى الداخل أو الخارج ، ولا ينبغى أبداً أن نتهمه بالخيانة والعمالة أو نفكر فى حرمانه من جنسيته ، ولقد كان فى مصر رواد لهم ، اذ هاجر أديب اسحق الى فرنسا فى عهد الطاغيتين الخديو اسماعيل والخديو توفيق ، وهاجر غيره الى انجلترا ، واستلوا أقلامهم فى صحف نشروها هناك حاملين على الطاغيتين حملة شعواء ، ثم هاجر الأستاذ الإمام محمد عبده بعد الاحتلال فى سنة ١٨٨٤ الى باريس وأصدر مع الأفغانى مجلة « العروة الوثقى » وأخذ يشهّر على صفحاتها بالنظام والإنجليز والخديو توفيق ، وقد عادوا جميعاً الى مصر بعد ذلك سالمين آمنين .

لقد رووا لى طرفاً مما أذاعه ونشره المهاجرون الرافضون من بغـــداد ودمشـــق ، وزعموا أنهم كتبوا وأذاعوا أن مصر تعيش بنظـــام السادات فى موجة من القهر والطغيـــان ، وأن المصريين محرومون من الحـــرية والديمقراطية ، وهـــذا كلام إن صح — وبعضه غير صحيح على علاته قبل سبتمبر الماضى — لا أفهم أن يصـــدر من بغـــداد حيث لا قانون ولا دســـتور ولا حرية ، إذ يقتل خصوم الحاكم هناك بالسحل أو الرصاص ، أو يصدر من دمشق حيث يذبح الإخوان المسلمون والمعارضون للنظام العلوى نهاراً جهاراً وتترك جثثهم فى وحشية وحقارة معلقة على أعواد المشانق أياماً وأسابيع ...

أفهم أن يحدثنا هؤلاء الرافضـــون من اخواننا وأبنائنا عن الديمقراطية والحرية والدستور من فرنســـا أو انجلترا أو الولايات المتحدة أو اليابان أو الهند أو غيرها من البلاد التى تعيش مناخ الحرية ويســـود فيها النظـــام الديمقراطى ويقدس الدستور ، أما أن نشق الثياب ونلطم الخـــدود لأن مصر تفتقـــد الديمقراطية وليس فيها حرية أو دســـتور ، فما أظن مناخ دمشق أو بغداد من شأنه أن يوقظ فى الانســـان أى معنى من هذه المعانى الرفيعة ...

ولا أدرى صحة ما قال هؤلاء الأدباء والصحفيون فى نقـــد بلادهم ومواطنيهم ، فان كان ما كتبوه على غرار ما كتبه

مونتسكيو فى كتابه « رسائل فارسية » ناقداً مجتمعه منددآً بعيوب مواطنيه قبل الثورة الفرنسية ، أو كانوا قد تأثروا ببرناردشو فيما كتب من تبكيت لاذع لمواطنيه الانجليز فى أكثر من كتاب نشر له خلال هذا القرن ، فإنى لا أجد عقوقاً فيما كتبوا أو أذاعوا ، وان كنت أفضل أن نعالج عيوبنا فى دارنا ولا ننشر ثيابنا نظيفة كانت أو قذرة عند السوريين والعراقيين .

أعرف أن بعض الرافضين منا اللائذين بدمشق وبغداد من أهل العلم ، فكيف فاتهم ما عند العاصمتين من عقدة نحو مصر والمصريين ؟

ليست زيارة القدس ولا كامب ديفيد ولا معاهدة السلام هى المبرر الحقيقى لموقفى سوريا والعراق من بلادنا ، ولم يكن الهدف من هذه الكراهية السادات أو سعيه إلى السلام ، إنما الهدف هو مصر ، مصدر أحقادهم منذ آلاف السنين ، من عهد آشور وبابل حين سادت بلادنا المنطقة عبر القرون .

انهم كارهون لمصر ، تقتلهم الغيرة منها ، فحتى يوم كانت قيادة العالم الإسلامى الى دمشق ثم بغداد ، كانت مصر — وهى ولاية تتبعهما — مصدر الرخاء للخلافة كلها ، ومبعث

النور بأفكار علمائها ، وملجأ الأحرار الفارين من طغيان حكامهم هناك ...

تأكل الغيرة قلوبهم منذ أصبحت مصر قبلة المسلمين فى عهد الفاطميين ، وبعد زمان الفاطميين .

ومع ذلك فمصر دائما وليهم الصادق الأمين ...

يوم استباح هولاكو وجنكيزخان بلادهما وعاثا فساداً فى مدنهما وسبيا نساءهما ، ووطئا أعناق رجالهما ، كانت مصر ، ومصر وحدها ، المؤدب للغزاة المردة ، فردتهم على أعقابهم مدحورين ، وحمت مصر دين الإسلام ومثل الإسلام وكل ما هو عزيز على المسلمين ، وأعادت لدمشق وبغداد الكرامة والأمن والسلام ! ...

ان مصر غصة فى حلوقهم منذ أصبحت لها الريادة على مر العصور حتى كتابة هذه السطور ..

منذ ستين قرناً وهم يحاولون عبثاً انتزاع العلم من يد المصريين ، وباءت كل محاولاتهم بالفشل المهين ...

وعبر قرون والخلاف مستحكم بين دمشق وبغداد ، ومنذ قرون لا تتصل مودتهما إلا حين يكون العداء لمصر والمصريين ...

هكذا فطر القوم على كراهيتنا منذ أعماق التاريخ ، منذ شادوا بيوتهم من الطين وارتفعـا ببيوتنا من حجـارة تزهو بصلابتها على مر السنين ...

منذ كتبوا على الأحجار بالمسـامير وكتبنا على الورق بالأقـلام ...

منذ كانوا جهـلة بكل علم وفن ، وكنا نبدع كيمائيين ومهندسين وزراع أرض وصناع حرف ...

منذ كنا نعيش مجتمعاً متحضراً رفيعاً ننتعل فيه وهم حفاة ، ونمتطى الجياد والعربات وهم لا يعرفون إلا الحمير ...

كيف فاتت هذه الحقائق أبناءنا المتورطين وبعضهم نعرفه أديباً لا يخيب حسه ودارساً لا تفوته حقائق التاريخ ؟

لقد حيرنا ما سمعناه عن جريمتهم ، ولشد ما سعدت حين قرأت فى الصحف أن السيد وزير الداخلية السابق سيلقى بياناً فى مجلس الشعب عما كتبه وأذاعه هؤلاء المارقون ؟ ! ..

لقد أنصت باهتمام شديد الى حديث وزير الداخلية الذى ألقاه فى مجلس الشعب ، وشاهدناه وهو يتحدث على شـاشة التليفزيون .

أقول أنصت بعمق لأسمع بيانه عن جرائر الصحفيين المهاجرين فى حق مصر والمصريين ..

قال وزير الداخلية انه لن يكشف الحياة الخاصة لأولئك العاقين ، وأنه سيكون موضوعياً فى حديثه ، وسرنى ذلك إذ يعنى أننا سنعرف جرائمهم مما سيذيعه علينا من أقوالهم وكتاباتهم .

ولم يذكر الوزير شيئاً عما كتبوه أو أذاعوه ، بل سرد علينا أسماءهم ثم دخل فى أخص خصوصياتهم واتهمهم بأنهم يعيشون حياة جنسية شاذة ويتبادلون الزوجات ! وأنه كان فى وسعه أن يقبض عليهم « بلابيص » ومفردها « بلبوص » أى الإنسان العارى كما ولدته أمه ! ثم يحدثنا عن أجوائهم المليئة بالأنفاس والبلابيع ؟ ! ...

سمعنا هذا الكلام المثير للأعصاب من خلال شاشة التليفزيون ... وسمعناه ومعنا أبناؤنا وبناتنا المراهقون والمراهقات ، وقد سئلت من صبية فى الخامسة عشر من عمرها ماذا يعنى الوزير بالأنفاس والبلابيع ؟ ! ...

أما الأنفاس فقد استنتجت أن السيد الوزير يعنى بها تعاطى الحشيش ، وأما البلابيع فوالله أقسم إنى لم أسمع عنها حتى ذلك اليوم ، وإن كنت قد علمت فيما بعد أنها شىء

يمضغ أو يبلع ومن مشتقاته القات والمنزول والأفيون وغيرها من بلابيـــع ! •••

ثم هذا الاتهام الذى قاله الوزير ، هل لديه وثيقة تؤكده ! أو فى يمينه دليل يثبته ؟ ! وحتى اذا كانت لديه وثيقة ودليل ما كان يجب أن يلقيه على نواب الأمة ويسمعه ويراه الملايين من المواطنين ! •

كنا نريد أن نسمع منه كيف ارتكب هؤلاء الخارجون على بلادهم العيب الذى يجرمهم ، وماذا قالوا من قحة فى زعمائنا ومواطنينا ، غير أنه للأسف الشـــديد شـــغلنا نحن المستمعين والمشاهدين بأمور لا تعنينا ، فى أسلوب لم يؤثر قط عن وزير سواء قبل الثورة أو بعدها منذ أنشئت النظارات والوزارات ، وجلس على دستها الأتراك والمصريون •••

لقد أحســـن مجلس الشعب صنعاً إن كان حقـــا قـــد حذف من المضـــبطة أقوال الوزير ، وأحســـن المشرفون على الصحافة الرسمية ، الأهرام والأخبار والجمهورية ، بحـــذف هذه العبارات التى جاءت على لسان الوزير •••

المعارضة والمعارضون

أما أننى واحد من المعارضة فذلك لا يحتاج الى بيـــان أو تفسير ، وأنا قد اختلفت مع النظـــام أيام الســـادات فى بعض شؤون الداخل خلافاً موضوعياً لا حقد فيه ولا موجدة ، وتشهد بذلك كل كتبى ومقالاتى منذ شرعت أكتب فى أمورنا العامة ، ولا جرح من السادات يدمينى ، بل لعلى كنت دائماً من أنصاره فى السياسة الخارجية ، مباركاً لكثير من قرارات الداخل التى أصدرها فى السنوات الأولى من حكمه فكانت بحق نوراً فى حياة المصريين .

وحسبى أننى أعارض فلا تند منى كلمة عيب ، ولا أكبو فى عبارة تؤخـــذ على أدبى ، ولا أنظر فى نقـــدى إلا للصـــالح العـــام ، وليس فى ضميرى تجريح لمن يخطىء أو يفتقـــد الصواب .

والشواهد على ما أدعى قائمة ، وأبرزها كتابى السابق الذى كتبته وكان عنوانه « أقول للسلطان » وهو كتاب نقـــد من مقدمته الى خاتمته ، قرأه الرئيس السادات رحمه الله ثم لقينى ، ولم يعتب على ما جاء فيه من نقد واضح وصريح ، وجادلنى فى أمره متأسيا ــ كما يقول هو فى خطبه ــ بما كان

يفعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يناقش من يحاجه ولا يسخط مهما تكن المحاجة حراقة وقاسية •••

ألم يطلب الخليفة من الناس السـمع والطاعة فاعترضـه بدوى جلف وقال له لا سمع لك ولا طاعة ! ثم استمر يقول لعمر ، انك رجل فاره الطول وتلبس ثوبا يصل الى قدميك ، ومعنى ذلك أنك جرت على حق المسلمين فى قماش بيت المال ، فأخذت لنفسك أكثر مما تستحق ، فدعا الخليفة الراشد السمح ولده وطلب اليه أن يجيب على تساؤل البدوى الثائر ، فذكر أنه تنـازل عن ثوبه لأبيه حتى يستر بقية جسمه ! ••• عندئذ قال البـدوى ، الآن يا أمير المؤمنين لك السمع والطاعة ••

لقد اتهم البدوى خليفة المسلمين فى ذمته فلم يغضب ويتهم الرجل بالتآمر والخيانة ، بل جادله وأثبت براءته ، فثبتّت عند المعترض وسائر المسلمين مقامه ، وكان جديرا حقا بأن يـكون الفاروق عمر أمير المؤمنين •••

هكذا يكون الحوار بين الراعى والرعية ، فان اختلفنا مع رئيسنا ــ أى رئيس ــ وأثقلنا عليه ، كعمر الذى يتأساه الحكام العدول ، فلا ينبغى أن يغضب وبذلك يصبح الرئيس أكرم منـا خلقاً وأوسع منا صدراً وتكتب له بذلك حسنة تضاف الى سجله وتذكر فى التاريخ •••

أما أن يتناول الحاكم كل رأى يقال وكل كلمة تكتب فى غلاف من الشك وسوء الظن ، أو يصغى الى النمامين الذين حــذر الله سبحانه من الاصغاء الى نمائمهم ووشاياتهم ، فتلك أســـوة لا يعرفها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب •

لذلك عجبت لموجات الغضب التى كانت تبدو على ألســنة وأقلام المؤيدين للحكومة كلما صدر كتاب يعارض أو نشر نقد فى صحيفة لأمر من الأمور ، وليس فيما كتب أو نشر ابتذال فى اللفظ أو قحة فى العبارة ، ومع ذلك فالسلطة كان يثيرها ما يكتب وينشر وتعتبره عودة الى أسلوب المعارضـــة الذى كان ســائدا قبــل الثورة ! •••

ولست أدرى ماذا كانت تريد السلطة منا حين نعارض أيام الرئيس السابق ؟ فنحن نعارض موضــوعيا ، ونكتب فى حــذر حتى قبل القوانين الجديدة التى تأخذ بتلابيب المعارض ان تنكب الطريق ، ومعظم الذين يكتبون هم من أساتذة الجامعات الذين تفرض عليهم رسالتهم العلمية ألا يقولوا كلمــة أو يكتبوا رأيا الا اذا وثقوه بمصدر أو أرجعوه الى حقيقة ، وليس من المعقول بعد أن شبوا وشابوا باحثين ودارسين أن يكتبوا فى أمور الوطن فيعاب عليهم ما يكتبون •••

وقد قلت لمسؤول كبير فى الرقابة من أصــدقاء الصــبا فى

معرض نقاش حول بعض فقرات جاءت فى أحد كتبى وتأذى منها السلطان ، ما رأيك أن تكتب لنا السلطة نمــوذجا نتأثره ونمضى على هداه ؟

قال كيف ؟

قلت ، اننا نعارض تلك القــوانين الرجعية التى كانت ــ وما تزال ــ سيفا مصلتا على أصحاب الرأى فى مصر ، وما على السلطان الا أن يكتب فى أسلوبه الفصيح نقداً لهذه القوانين ، وما علينا بعد ذلك الا أن ننهج نهج أسلوبه المريح لأعصـــابه ، ولا شك سيكون مريحا لأعصابنا أيضا ، وبذلك نبتعد عن أساليب ما قبل الثورة ، فكل ما كان قبل الثـــورة ، كان كريه الرائحـــة والطعم كالزفت والطين ! •••

وابتسم الرجل ورفض أن يناقش هذا الاقتراح المفيد !•••

أنا أتحدث عن المعارضـــة المستقلة النزيهـــة ، ولا أعنى بالمعارضين الخصوم الشخصيين من زمـــلاء الرئيس الســـابق وصحبه الأقـــدمين ، وهم الذين يتصـــيدون المعارضـــين ، أى معارضين ! •••

لذلك عجبت أن يتقدم أولئك المعارضون بعريضة للسادات رحمه الله يقبحون فيها ســـياسته ــ وكان ذلك قبـــل (أيلولنا) الأسود بنحو سنتين ــ ويطالبون بوجود ديمقراطية صحيحـــة ،

واطلاق الحرية فى تكوين الأحزاب ، وحق الأفراد والجماعات فى اصدار الصحف والمجلات دون تدخل من الحكومة أو فرض رقابتها عليها بما سنت من تشريعات ، وغير ذلك من مطالب لا يعارضها انسان ينبض قلبه فعلا بهذه المثل الرفيعة التى يموت الحر دونها ولا تستقيم حياته الا بتحقيقها .

ووقع العريضة الشآمى والمغربى ، والمؤمن والملحد ، وكان بعض الموقعين من العتاة العتاولة أعضاء مجلس الثورة ! ومن بعض وزراء عبد الناصر المدنيين الذين رضيت ضمائرهم أن يشاركوا فى حكم وأد الحرية وعصف بالقيم ، وأزرى بكرامة الانسان ، وقتل وفسق وسرق ونهب وارتكب كل فاحشة ، ثم استمروا الى جانب السلطان شياطين خرسا لا ينطقون ، كأن عيونهم وقلوبهم قد غشيت فلا هم يبصرون ولا هم يحسون ! .

وموضع دهشتى أن يضع رجال أحزاب ما قبل الثورة وأياديهم بيضاء فى أيدى طغاة مجلس الثورة وأياديهم مخضبة بدماء من عذبوهم ، وهم الظلمة الذين صدرت عن محاكم التفتيش التى رأسوها أحكام الاعدام والسجن لأحرار المصريين وأشرافهم من علماء البلاد وقادتها المبرزين ، وبعض هؤلاء الطغاة قد استوردوا أدوات التعذيب وخبراء النازية فى هذا الميدان ، ومنهم من قام باخماد ثورة الاخوان المسلمين فى

السجن ، فأطلق عليهم رصاص الرشاشات خبط عشواء ، وقتل منهم من قتل وجرح العشرات والمئات •••

وانها لنكتة سخيفة وسمجة واستخفاف بعقول الناس أن يصـــور هؤلاء الطغاة أنفسهم دعاة الحـــرية والديمقراطيـــة والدستور ، وهم الذين وأدوا الحرية وألغوا الأحزاب وعطلوا الدستور •••

اننا لن ننسى الكرام الذين شردوهم ، والمستورين الذين عروهم بمصادرة مالهم واغتصاب عقاراتهم •••

اننا لن ننسى الآلاف الذين فصلوهم من وظائفهم وهم أكفأ الموظفين ، وطاردوهم فى مصر والخـــارج ليموتوا جوعـــا أو يعودوا الى ساحتهم راكعين ، وينتظموا فى صفوف حمـــلة القماقم الذين حولوهم الى جماعة من المساخيط ! ••

لقـــد كان تشرشل يقول للمعترضين على تحالفه مع الروس إبّان الحرب العالمية الثانية إنه مستعد للتحالف مع الشيطان ليسقط هتلر ويقضى على النازية ، ولكن رجال ما قبـــل الثورة قد فقدوا اتزانهم ولم يتحالفوا مع شيطان واحد بل تحالفوا مع مجموعة من الشياطين ، لا فى سبيل هدف سام ، بل لغرض يشفى غليل فراعين عبد الناصر الأقزام ، وهو اسقاط النظام القـــائم والقضاء على السادات رحمه الله •

ونسى ساسة ما قبل الثورة أن بعض الذين تعاطفوا معهم أيام السـادات هم من النـاصريين الذين آذوهم فى مالهـم وكرامتهم واستباحوا شرفهم ، ومرغوا رءوسـهم فى التراب ، وأنهم قد عادوا اليوم بعـد مصرعه ينكرون عليه حسناته التى لا تنكر ، ثم يتكتلون من جديد ، ويتخيرون كاتباً ليبث بقلمـه سمومهم عن طريق جريدة الأهرام •

وشرع هـذا الكاتب فور عودته الى مصر يدعو فى نهره الى إحيـاء الناصرية من جـديد ، ويشتم مواطنيه ويصفهم بالعقوق ونكران الجميل لأنهم أهملوا الاحتفال بمولد جمـال عبد الناصر الذى صنع أمة كما صنعها سلفه محمد على الكبير !••

وكانت كلمات هـذا الصحفى العائد من المنفى السـعيد الذى اختاره لنفسه وعاش مرفهاً فى ظل عشرات الألوف من الدنانير ، كانت كلماته فى نهره الـذى يكتبه صـباح كل يوم تفسد طعام الإفطار لكل من يقرؤها وتشعره بالكآبة والرغبة فى القىء البقية الباقية من وجه النهار •••

ويزعم الناصريون على لسان كاتبهم هـذا أن تاريخ مصر الحـديث لم ينبت من الأعلام إلا محمد على الكبير وزعيمـه عبـد الناصر الخطـير ، أما مصـطفى كامل وسـعد زغلول ومصطفى النحاس والسـادات فأصـفار على اليسار وليس فيهم واحد على اليمين •••

محمد علي كما يقول — وهو هنــا صادق فيما يقول — خلق الصــناعة فى مصر ، وبنى القنــاطر الخــيرية ، وحقق الاستقلال الوطنى ، أما وليه عبد الناصر فقد أفسد الصــناعة التى ازدهرت قبل الثورة ، وبنى — كالقنــاطر الخــيرية — السد العالى ، فكان كارثة تهــدد القرى والمــدن ، ونكبة على الأراضى الزراعية التى افتقدت الطمى منذ بنائه فضلاً عن الأخطار الجانبية التى حذر منها علماء الرى ، حتى ليقــــول بعضــهم إن مصر فى انتظــار البطــل الذى يخلصها من هــذا السد اللعين ...

أما عن الاستقلال الوطنى الذى بنى صرحه محمد على ، فقــد أفقدنا إياه زعيمه عبــد الناصر ، فرحــل عنا غفر الله له وثلث أراضينا تحتله إسرائيل ، والقناة معطلة ســبع سنوات وكان دخلها السنوى عشرات أو مئات الملايين ، وجعلنا نتسول من اخواننا أصحاب البترول الذين عاش فى رحابهم هذا الكاتب السنوات السعيدة السمان ؟ .

ولست أدرى كيف يطالبنا بإقامة تمثال لعبد الناصر ومصر لم تلتئم بعــد جراحها من التعذيب الذى نال خــيرة رجالهــا ونسائها فى ســجون ومعتقلات بطــله المزعــوم ، كما أنها — أى مصر — لا تزال تعانى من الفساد الذى انتشر فى عهده على

أيدى اللصوص والمجرمين الذين قام عرشه على سواعدهم ، والذين جعلوا من المصرى غريباً فى بلده وعرف الغنى الفقر فى زمنه ، ومات الفقير من الجوع •

إنهم يريدون إعادة عهدهم الذهبى ليستمتعوا ويسعدوا بكل ألوان المتع ، والتى كانت وقفاً على الناصريين وحدهم من حمـلة القماقم ومباخر النتن ودعـاة الهزيمـة والعـار فى سنة ١٩٦٧ •

نقابة لمن ؟

عندما فكرت الحكومة فى تحويل نقابة الصحفيين الى ناد ، استبشرت خيراً وقلت لعل الحكومة قد استقام أمرها وبدأت تسوس الأمور على وجهها الصحيح ؟ ! ...

وهالتنى المعارضة التى صدرت من هيئات القضاء والمحامين وغيرهم لهذا التفكير السليم ، وقرأت بامعان الدراسات التى نشرت فى هذا الموضوع والمقالات التى كتبت فى صحيفة المعارضة اليتيمة وزميلتها مجلة الدعوة ، وموقف نقيب الصحفيين السابق فى الذود عن نقابته ، وهو رجل يستمتع بسمعة علمية وأدبية طيبة ، وقد أعجبنى عمق ما تناوله من دراسات موثقة فى حقول الفكر الرائد المستقيم .

وقد سبق أن أصدرت كتيباً [1] أدافع فيه عن حرية الصحافة عندما فكر الأستاذ عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام السابق فى مشروعه الخاص بتنظيم الصحافة ، وشجبت ذلك المشروع وبينت أنه صورة من القوانين الرجعية التى أصدرتها الدولة العثمانية وطبقت فى مصر وسائر ولاياتها منذ مائة

---

(١) راجع كتاب : محنة الصحافة وولى النعم .

وثلاثين سنة ، وكان لابد لمثلى أن يشهر قلمه اذ ذاك ، فأنا من العاملين فى حقل الصحافة ، أستاذا لفنها فى الجامعة ، ومحررا فى كثير من صحفها ومجلاتها ، ومسجلا تاريخها العظيم فى كثير من الكتب والأوراق ، كان لابد أن يكون لى رأى فى قانون الصاوى أطرحه على المواطنين لأبين كيف يعودون بنا القهقرى الى ما قبل ثورة مايو تلك الثورة العظيمة التى حملت فى أعطافها حرية القلم وحرية التعبير ! •

وسكت زميلنا وصديقنا الصاوى عن قانونه وتركه فى مجلس الشعب يغط فى نوم عميق حتى فكروا فى تحويل النقابة الى ناد ، ويجب أن نفصل بين النقابة وبين الصحفيين الذين ينتمون اليها ، فالنقابات تنشأ عادة لجماعة تعرف حقوقها وتدافع عنها وهى حرة من كل سلطان الا سلطانها وليد ارادتها •

ونقابة الصحفيين تضم أغلبية ساحقة من الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم من الدولة ويعملون فى صحفها ويطلقون عليهم لفظ « المحررين » ويرأس كل صحيفة رقيب عينته الدولة يسمونه « رئيس التحرير » ينزل اليه التوجيه ، فينزله بدوره الى من يعملون معه ، وهو ، وهم معه ، ملتزمون ، ومن يتجاوز هذا الالتزام ينقل الى صحيفة أخرى أو الى أية مؤسسة أو يلزم بيته ويجرى عليه الراتب المرموق على سبيل الصدقة والإحسان ! •••

وكان نقيب الصحفيين فيما سبق من أيام ، صاحب جريدة أو مجلة أو صحفياً لامعــاً من بين المحررين [١] ، وكانت الدولة تصغى بالمودة لمن ينتظمون فى هــذا الحقل الرفيع ، فاذا ألقت الحكومة القبض على صحفى نــدّ قلمه عن الأصــول ، أنزلته السجن أو المعتقل ينام على سرير ويطعم ما يشاء من شــهى الطعام ، ويقرأ الصــحف ، ويكتب أحيــانا المقالات لتنشر فى صحيفته وهو معتقل أو مسجون ، بل تقــدم له مبلغاً من المــال يستعين به على المصروف ! •••

وقلما كان يوجــه مسؤول لصحفى لفظاً قاسياً أو عبــارة جارحة ، وقــد عشنا وسمعنا أن صحفيينا لا يســاوون ثلاثة ملاليم ، وفى رواية أخــرى أكرموهم فرفعوا ســعرهم خمس مــرات ؟ ! •••

أى نقــابة يدافعون عنها ويتشبثون بهــا ؟ ان مقامهم فى الحق جدير بنــاد يجلسون فيه ويسترخون •••

ثم مــاذا ؟ •

كتبوا يطالبون بحرية الصحافة وأن يكون لهــا تشريع يطلق حريتها من عقالها ، وهو طلب يجافى واقعهم ، بينما الحــكومة

---

(١) كان محمود أبو الفتوح أول نقيب للصحفيين وان أنكر ذلك المزورون للتاريخ •

صادقة مع نفسها فأصـــدرت قانوناً يخالف ما أقرته لجنة تقنين الصحافة ، وعرض القانون على مجلس الشعب فى عجلة ، ثم تمت الموافقة عليه فى لحظات ...

وســمح القانون للهيئات والجماعات أن تصـــدر جريدة يومية أو مجلة أسبوعية ، على أن يضـــع أصـــحاب الجـــريدة اليومية كرأسمال ربع مليون جنيه فى أحد المصارف دفعة واحدة، ويضـــع أصحاب المجلة مائة ألف جنيه لا تنقص مليما ، وهـــذا أول تعجيز لمن يفكرون فى جريدة أو مجلة ، لأن قانون الشركات يسمح بقيام المؤسسة إن ســـدد أصحابها للمصرف ربع رأس المال على أن يستكمل على مهل وفى غير عجلة .

وشىء طريف حقـــاً نص عليـــه القانون فى تكوين شركات الصحف فقرر أن تنتخب الجمعية العمومية لأصحاب الجريدة أو المجلة خمسة عشر عضـــواً من بين المساهمين لإدارة المنشأة الصحفية ، على أن يعين مجلس الشورى — وكل أعضـــائه من حزب الحـــكومة — عشرين عضـــوا ينضمون الى الأعضـــــاء أصحاب الصحيفة للإشراف على سياستها وادارتها ، وبذلك تضـــمن الحكومة أغلبية فى الادارة والتحرير ، ثم يعين رئيس مجلس الشورى الذى يعينـــه رئيس الدولة — وهو فى الوقت نفسه رئيس الحـــزب الحاكم — رئيس مجلس ادارة الشركة

ورئيس تحريرها [1] تماماً كما يحـــدث فى تعيينات صـــحف الحكومة ، يوميات كانت أو أسبوعيات أو شهريات ...

ومعنى ذلك أن الملتاثين الذين يسددون من حر مالهم ربع مليون جنيه أو مائة ألف جنيه فى سبيل صحيفة أو مجلة تعبر عن آرائهم ، إنما يتبرعون للحـــكومة بأموالهم لتضـــيف الى صحفها مزيداً من الصحف والمجـــلات ، حتى يتأكد للمصريين أن الصحافة فى بلادهم قـــد أصبحت سلطة رابعة ! ...

من ذا الذى نصح الحكومة باصدار هذا القانون ؟

من ذا الذى ورطهـــا فى تشريع هو صـــورة من تشريعات العصـــور المتخلفة أو تشريعات بعض دول الرفض كســـوريا والعـــراق ؟

من ذا الذى رضى ضميره أن يحتقر شعبه الى هـــذا المدى فزف اليـــه « السلطة الرابعة » فى صـــفوف من حملة القماقم وعلى دقات موسيقى الجنازات ؟ .

ثم مـــاذا ؟

ثم عدلت الحـــكومة وغيرت ، وأصـــدرت قوانين أخرى

---

(١) راجع نصـــوص القانون فى مجلة الدعوة عـــدد سبتمبر سنة ١٩٨٠

لا تستحق المناقشة ، لأنهـا عندى عبث يجعل حرية الصـحافة رهنا لمشيئة الحـكومة أو ممثليها فى مجلس الشورى ، ولا يخرج الصحفيين من سلك الموظفين الذين يدينون بالولاء للسلطان ، ولا يحقق النكتة التى يسمونها سلطة رابعة ، وهى سلطة ليس لهـا مثيـل فى العالم ، فالصحافة وظيفة اجتماعيـة لا تؤدى على الوجه الصحيح إلا بمراقبة الحكومة ونقـدها ، وهو أمر متعـذر على قوم يتلقون الرزق أول الشـهر من بيت مـال السـلطان •

إن أكثر رؤساء التحرير ورؤساء اداراتها يعيشـون اليوم فى فزع ، فإن هناك تيـاراً قوياً يطالب بحرية انشاء الصحف ، وسـوف ينتصر هـذا التيار طـال الزمن أو قصر ، وعنـدئذ سوف يختفى الزبد ، ويبقى الأحرار وحـدهم فى الميـدان ، وينتهى عهـد طواغيت الصـحافة ، وتغلق صـفحة التاريخ البغيض التى كان فيها الصحفيون كعبيـد السفن يسيطرون على الأمواج تحت وقع الضرب بالنعال أو السياط •••

ألست محقا حين رحبت بتفكير الحـكومة التى كانت تريد تحويل نقابة الصـحفيين الى ناد يلعبون فيه النرد أو يحتسون فيه القهوة والشاى أو يتكئون على أرائكه ويسترخون ؟ ! •••

محنة الرأى

عندما كان يحكمنا عبد الناصر ، تقلد مناصب فرعون ، فهو إله من صلب آلهة ، وهو الحاكم الفرد له الدنيا والآخرة ، وليس من الضرورى أن يكون كفراعنة مصر يحنو ويعطف فى الوقت الذى يحيى فيه ويميت ، بل اقتصرت رسالته على ما نعرف من مآس كان من بينها كتم الأنفاس وكبت الأفكار ، وحرمان المفكرين من ابداء الرأى أو بسط ما يدور فى أذهانهم من تفكير .

لذلك كنا نحن الذين يسموننا مثقفين لا نتكلم ولا نكتب ونطرد أى فكرة نريد أن نعلنها خشية المقصلة أو السجن أو التعذيب فى المعتقل أو مصادرة ما نملك من عقار ومال ، ولذلك فضلنا أفاريز الشوارع نمشى عليها بعيداً عن زحمة الطريق الذى أباحه النظام الناصرى للنعاج والخراف ترتع فيه كما تشاء ! ...

وكان عبد الناصر يشكو أحيانا من سلبية بعض رعاياه من المفكرين ! ويتعجب لهذه السلبية ، غافلا عن نظامه الذى فرض هذه السلبية ، فقد طلب الينا يوماً أن نرفع رؤوسنا

فلما رفعناها جزها عن رقابنا ، أو رمانا فى السجون والمعتقلات سنين وسنين ! •••

ثم مضى عبد الناصر الى ربه وجاء السادات ، وأشهد أن مطالع أيامه كانت مشرقة ، أنارت نفوسنا ، وانساب الى قلوبنا الأمن والأمان ، ومضى بنا قبل ثورة مايو وبعدها يربت على ظهورنا وأكتافنا كما يفعل الأب الرحيم مع أبنائه ، فنزلنا من أفاريز الشوارع الى عرض الطريق ، وساهمنا مع أبناء وطننا فى العمل من أجل مصر الجديدة فى عهد جديد •

وقد نشطنا عاملين فى حقولنا الخاصة ، وساهمت أقلامنا بالرأى السديد والنصح الرشيد والنقد الصريح ، يدفعنا الى ذلك رغبة الحاكم الجديد فى التعرف الى منهج الحكم الصالح ، فقد أصبح الأمر شورى ، ونزل فرعون عن دسته ، وخلع شارات الألوهية وعلامات الملك البغيضة وسلطان الطغاة الذين حطموا العرف ونشروا المفاسد ، وأعلوا بالكفر وأسفلوا بالدين ، وسمحوا لمحمد نبينا العظيم بيوم نحتفل فيه بذكرى مولده ، ثم خصصوا أربعين يوما احتفالا بذكرى لينين ؟ ! •••

ولما كنت واحدا من فئة المثقفين ، فقد شرعت قلمى أكتب فى الصحف من غير أجر ، وأنشر الكتب فى غير انتظار لعائد منها سواء كان قليلا أو كثيراً ، وإنما أقبلت بكل ما أملك من رأى

وفكر أكتب للمواطنين عن المحن التى عشناها فى ظـل النظـام الناصرى ، مبصرا وشارحا ومفنـدا الغش والأكاذيب راجيـا أن يستيقظ المواطنون من سباتهم ، وأن يصحوا من غفلة الزمن التى جعلتهم زهـاء ثمانيـة عشر عامـا تائهين فى موجات من الأباطيل ، كأنهم فى « سطْلَة » إثر تناول مخدر قوى أقوى من القـات والحشيش ! •••

وصحا الناس على صرير أقلامنا ، ومضـوا معنا يلعنون حياتهم ثمانية عشر عاما ، ثم أسقطوا تلك الأعوام من عمرهم ، وقالوا معنـا لنعش من جديد ! •

وكتبنا ثم كتبنا ، وانتصر القـلم الحر حين أمر الرئيس السادات بالغاء الرقابة على الكتب ومنع مصادرة أى مطبوع ، وسعد كل صاحب قـلم بهـذا القرار ، ومضى على ذلك نحـو عامين عادت بعدهما « جهـة ما » لا أعرفها تعطل قرار الرئيس الذى أعلنه كبير وزرائه فى مجلس الشعب وصفق له الأعضاء ، وصفق معهم سائر المصريين •••

عادت متاعب القـلم وعادت محنة الرأى بمصادرة الكتب بطريقة لا تلجـأ اليها الحـكومات الديمقراطية فتلك الحكومات تتخذ قراراً بالمصادرة علانية إن تجاوز المطبوع حدود القانون ، ولصاحبه أن يلجـأ الى المحـكمة ، ويخضع الشاكى والمشكو لحكم القضـاء •

كيف عـــادت متاعب القـــلم ؟

منذ نحو ثلاث سنوات نشرت كتاباً اسمه (الديمقراطية بين شيوخ الحارة ومجالس الطراطير) وســـلمت عــدة آلاف من نسخه لشركة التوزيع التابعة لمؤسسة أخبار اليوم ، ووزعت عن طريقى بضـــع مئات من النسخ لبعض « أكشاك » الصحف النشطة فى قلب القاهرة ، وأرسلت اعـــلاناً للتليفزيون ، ومثله لجريدتى الأهرام والأخبار لينشر فيهما سبعة أيام •

ثم مـــاذا ؟

رفضت السيدة رئيسة التليفزيون السابقة اذاعة الإعلان دون أن تقرأ الكتاب مكتفية فى اعتراضها باسم الكتاب ؟ ! •

كنت أود أن تقرأ السيدة المذكورة هــذا الكتـــاب لتتعلم تاريخ الديمقراطية فى مصر ، وهى دراسة موثقة عن المعــركة بين الحرية والاستبداد منذ عرفت مصر الدستور والديمقراطية وانشاء الوزارات فى عهــد الخديو اسماعيل ، ولكن الســيدة رئيسة التليفزيون رفضت أن تتعلم ، وقرأت اسم الكتاب فقط ففزعت وجزعت وخشيت أن يكون المقصـــود من عنوان الكتاب نقــداً للسلطة أو تعريضاً بهـــا وهو أمر لم أفــكر فيه عنــد انشاء الكتاب ، وتكشف كل كتبى عن أننى لا أتصـــيد الأخطاء

بل أواجـه الغلط فى وضـوح وأنقـده بنية حسنة تهـدف الى فائدة الحاكم قبل المحكوم .

وظهرت الإعـلانات عن الكتـاب فى جريدتى الأهـرام والأخبار ، واستمرت الأهرام تنشر هـذا الإعلان على مـدى سبعة أيام ، أما الأخبـار فنشرته يومين فقط ، ثم قالوا لى فى ادارة الإعـلان إن « الأوامر » قـد صـدرت بوقف هـذا الإعلان ! .

وأقبل علىّ المسؤول عن التوزيع فى مؤسـستنا مهنئاً بأن الكتاب قـد نفـد من السوق ، ولكن قلبى حدثنى بأن تفاؤل الرجل فى غير موضـعه لأن هنـاك أوامر تصدر ضـد الكتاب وأنه ليس من المعقول أن تنفد عـدة آلاف من نسخة فى ثلاثة أيام ، ولم يخب سوء ظنى ، فقـد علمت فى شركة التوزيع أنهم سحبوا الكتاب من السوق لأن « الأوامر » صدرت بسحبه ! ..

وعجبت لكل ذلك ، فقـد توقفت الأخبـار وهى جريدة حـكومية عن نشر الإعـلان فجأة ، ثم سحبت شركة التوزيع الكتاب من السوق وهى شركة تتبع الحـكومة أيضاً ، أى تمت مصـادرة الكتـاب بطريقة فيهـا من الخبث والدهاء الشىء الكثـير ، إذ لا يمكننى مساءلة الجـريدة أو الشركة عن طريق القضـاء ، فكلتاهما حرة فى الإعـلان أو التوزيع ، وليسـت هنـاك صحف أخرى واسعة الانتشار يمكن أن تنشر اعلانى ،

وليست هناك شركات توزيع من هـــذا اللـــون تتبع القطـــاع الخاص حتى نلجأ اليها ، وتتحرر أفكارنا من سلطان أصـــحاب الســـلطان •••

ولكن شيئا شغلنى ، ترى من الذى أمر بوقف الإعلان فى الأخبار ورفض اذاعته فى التليفزيون وسحبه من السوق ؟ •

اذا كانت الدولة هى مرتكبة هـــذا العيب ، فلماذا لم يتوقف الإعـــلان فى جريدة الأهرام وهى جريدة للدولة أيضا كجريدة الأخبـــار ؟ ••

وإذن فالمسؤولية لا تتحملها الدولة مباشرة ، بل تتحملهـــا أدواتها مثل العاملين فى التليفزيون أو العاملين فى الأخبـــار وشركة التوزيع التابعة لهـــا •

واذن فإن ما يعانيه الرأى من اضطهاد يرجع الى أدوات الدولة التى لم تحسن اختيـــار موظفيها الذين يخافون خيالهم ويرون قمـــة النفاق فى مطاردة كل فـــكرة حـــرة وكل تحيـــة للديمقراطية وان جاء ذلك فى سرد تاريخى لم يخـــل من ذكره كتـــاب تاريخ •

وفى ضـــوء ذلك الخوف ، وبنظرة قطـــيرة عاجزة عن فهم الصحيح من الأمور ، صـــدر أمر بمنع الإعـــلان عن الكتـــاب

وسحب نسخه من السوق ، ونسوا أن الشعب حساس ولن تخفى عليه ألاعيب المنافقين ، ونسوا كذلك أنهم يرتكبون إثماً اذ يخلعون عن الدولة صفتها الديمقراطية ، ويسيئون الى نظام الراحل الكبير الذى كان يتغنى فى كل مناسبة بأن بلاده واحة الحرية فى المنطقة العربية ، وهو بلا شك لم يكن على علم بخطيئة المسؤولين فى الأخبار والتليفزيون ، لأن ما ارتكب فى حق كتابى فى مصر تم مثله تماماً فى البلاد العربية ، فقد أصدرت معظم حكوماتها قراراً بمصادرة هذا الكتاب ومنع تداوله لأنه يتحدث عن الحرية والديمقراطية ، ويوآزر خطا السادات السلمية ويدافع عنها ويباركها .

أليس غريباً أن يلقى كتابى فى مصر نفس المصير الذى لقيه فى بعض دول الخليج والبلاد العربية الأخرى ؟ .

ان مصادرة الكتب لها طرق عديدة ، فقضية كتابى مصادرة من نوع فريد لا تعرفه الديمقراطيات ولا الدكتاتوريات ...

أما فى النظم الديمقراطية فالحكومة تتخذ قرار المصادرة علانية إن رأت أن المؤلف قد تجاوز فى مطبوعه حدود القانون ، ولصاحبه أن يلجأ الى المحكمة ويخضع الشاكى والمشكو لحكم القضاء .

وفى النظم الدكتاتورية تصادر الحكومة الكتاب غير

حافلة بالمحاكم — إن سمح بالشكوى للمحاكم — أو بالرأى العام ، ثم تقوم بحرق نسخ الكتاب ، وقد تحرق معها صاحب الكتاب غافلة عن أن قتل الأفكار مستحيل سواء كان بالتحريق أو بالمشانق تتدلى منها الرقاب ؟ •••

ولا شك ، فى قضية كتابى ، أن أدوات السلطة فى الأخبار والتليفزيون قد تنكبت الطريقة السوية فى حرمان الكتاب من الإعلان والتوزيع ، ومع ذلك فإن كثيراً من نسخة بيع فى اليومين الأولين وبقية نسخه قامت مؤسستنا ببيعها حتى لم يبق من آلاف النسخ الا بضع عشرات ! •••

كنت لا أحب أن أجعل من كتابى قضية أنشرها فى صفحات من هذا الكتاب ، بيد أنها ليست قضية خاصة ، بل هى قضية عامة يخلقها بين الحين والحين الفكر المغلق الذى يكره الحوار وان جاء فى كتاب محدود النسخ محدود القراء •

ان أدوات السلطة كانت تدفعنا دفعاً الى الأفاريز من جديد لنتخذ موقفاً سلبياً كما كانت الحال فى أيام عبد الناصر ، فلا نتكلم ولا ندلى برأى فى مجريات الأمور •

ان الحكومة تعلن رأيها من على المنابر ومن خلال صحفها ، وعن طريق الراديو والتليفزيون وهما حكر لها ووقف

عليها ، انهـــا تحاور خصومها من أوســـع الميـــادين ، وهم إن استطاعوا رداً جاء الرد من أصـــغر زقاق ! فلمَ الضيق اذن ورأى المعارضة خافت كأنه صادر من القبور ؟ •

* * *

لم يقف اضـــطهاد الرأى عنـــد الأحيـــاء بل تجاوزه الى الأموات من العلماء والمفكرين ، وتمثلت الضـــحية فى كتـــاب « الفتوحات المكية » الذى كتبه الفيلسوف محى الدين بن عربى وطبع فى مصر منـــذ مائة وخمسين سنة ولم يتعرض له أحـــد لا من الحكومة ولا من رجال الدين •

ومعنى ذلك أن الأفكار فى مطالع القرن التاسع عشر ، أى فى عهـــد محمـــد على الأمى الذكى كانت تستمتع بحرية افتقدتها مصر فى أواخر القرن العشرين وفى عهـــد تميز بانتشار العـــلم وبالجامعات فى كل اقليم •

ومن عجب الأمور أن يقرر مجلس الشعب منع تداول هذا الكتاب ، ولا أدرى الحيثيات التى عرضت على المجلس حتى يتخـــذ قراراً فى مطبوع لا يفهمه الا المتخصصـــون فى هـــذه الدراسات ، وأكبر ظنى أن مجلس الشعب الموقر ليس فيـــه الا قلة لا يتجاوز عددها أصـــابع اليـــد الواحـــدة تســـتطيع

قراءة الكتاب ، مجرد قراءة لا يمكن أن ينتج عنها حيثيات تبرر مصادرة الكتاب ، فأين أساتذة الجامعات فى حقلى التراث والفلسفة ؟ كان يجب أن يرجع اليهم المجلس ، وعلى ضوء ما يرون يصدر القرار •

لقد عبنا على مجلس النواب سنة ١٩٢٦ اضطهاده لكتاب الشعر الجاهلي الذى ألفه الدكتور طه حسين حين كان يشغل وظيفة أستاذ الأدب العربى فى الجامعة المصرية ، واذا بنا لا نزال فى سنة ١٩٢٦ ! نفكر تفكير السلف فنتخذ قراراً دون أن نسمع الى الاخصائيين أو نقرأ ما قاله أهل العلم فى هذا الكتاب ، وعندنا دفاع عنه فى رسالة كتبها إمام من المفكرين المسلمين وهو جلال الدين السيوطى العالم الفقيه فى شؤون الدين والدنيا ، سماها « تنبيه الغبى فى تبرئة ابن عربى » فهل قرأ أحد من أعضاء مجلس الشعب هذه الرسالة أو استوعب شيئا من فصولها الكثار ؟

صدقونى ان القوم لم يقرءوا الكتاب ، ولو قرأوه لعز عليهم فهمه فقد حاولت أن أستوعبه فجل علىّ ذلك ولولا رسالة السيوطى لخرجت من الفتوحات المكية صفر اليدين •••

* * *

ويأتى بعد ذلك موضوع أثاره الزميل الأستاذ عبد السلام داود فى جريدة الأخبار فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٨٠

وهو خاص بفيلم « الرسالة » فى نسختيه المنفصلتين ، العربية والانجليزية ، وقد سعدت حين قرأت دعوته الى رفع الحظر المفروض على عرض الفيلم ، وخاصة النسخة العربية التى أبدع فيها الممثلون المصريون أيما ابداع •

من قال إن فيلم « الرسالة » يتنافى مع الدين أو التوقير الواجب نحو نبينا العظيم وبيته وخلفائه الراشدين ؟

إن كتب السلف وصفت شكل وحجم وصورة وأخلاق وتصرفات لا الصحابة وحدهم بل وصفت كل ذلك فى النبى الكريم •

كيف نضيق بظهور حمزة عم النبى فى الفيلم وهو يجاهد بدمه وكبده فى سبيل رسالة هى أرفع وأعظم وأكرم رسالة عرفها التاريخ ؟ •

ان أسرة النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفاءه من البشر ، وجلالهم فى أقوالهم وأعمالهم لا فى صورهم وأشكالهم •

ان النسخة العربية من فيلم « الرسالة » التى شاهدتها فى لندن ، ورأيت الناس فى قاعة السينما يبكون من فرط تأثرهم وإيمانهم ، لأقوى أثراً على المسلمين من مؤتمرات المسلمين ،

وكل عرض لهذا الفيلم يثبّت إيمان المسلم بأكثر ألف مرة من الكلمات الانشائية التى نسمعها فى سيرة الرسول العظيم ، أو فى تلك المواعظ التى ننصت اليها راغمين من على بعض منابر الجمع والأعياد •

ان فيلم الرسالة يجسد للمسلم مدى الكفاح الذى بذل فى سبيل نشر ديننا الحنيف ، ومدى العمق والصدق فى الدعوة الإسلامية ، ويعيش المشاهد لهذا الفيلم رسالة الإسلام فى أسمى معانيها •

ماذا لو ان الزمن تقدم بالمسلمين أربعة عشر قرناً واخترعت «الكاميرا» على عهد نبينا العظيم وخلفائه الراشدين ؟ أما كانت صورهم بين أدينا وملء عيوننا فى كل مكان ؟ •

كيف تنتصر العقول المتحجرة والأفكار الرجعية فى قضية هذا الفيلم وليس فى يمينهم حجة يبسطونها الا لجاجة تنطلق من حناجرهم أو تسجل فى كتاباتهم ؟ •

وقديماً حرقوا من أثبت أن الأرض كروية ! •••

وقديماً عذبوا من أكد أنها تدور حول الشمس أو أنها تدور حول نفسها ! •

لقد كان أجـــدادنا فى مصر يرون إلى عهـــد غير بعيد أن الاشتغال بالرسم والتصوير وتعليم الهندسة والجبر والجغرافيا إلحـــاد وكفر وزندقة وافتئات على الدين ؟ ! •••

منذ ستين عاماً أضرب طـــلاب المعهـــد الأحمـــدى فى طنطا حينما قررت الحكومة تدريس الجغرافيا فى ذلك المعهد العتيد ! واليوم تدرس الجغرافيا فى جميع المعاهد الدينية وعلى رأسها كليات الأزهر الشريف •

ماذا عن أفلام عيسى بن مريم عليه السلام ؟

كيف سمحت ذمة الغيورين على الدين بمنع أفـــلامه وقد شاهدناها فى مصر منـــذ ثلاثين سنة ؟ ألا يعتبر هـــذا ردة عن انفتاح الصدر والعقل ، وعودة الى التزمت البغيض فى شؤون الدين والدنيـــا ، ومحنة للفكر والرأى تضـــاف الى محنة القلم الذى عـــلم الله به علمـــه ، وكتب به ذكره ، وأعلى به كلمته ، وجعله فاتحة الرسالة لنبينا العظيم ؟ •

متى يعرف الحاكم والمحـــكوم أن اضطهاد الرأى موقوت ، وأن كلمة الحق عالية ومنيرة ، ولا تستطيع جمـــاعة أن تحجب نورها بقرار ، أو يكسف حاكم بهاءها بقانون ؟ ••

البروتوكول والدستور

قال المغفور له الرئيس السادات للمجتمعين به من أساتذة جامعة الاسكندرية (١) إن أغلى الوظائف عنـــده أن يكون رب الأسرة أو رب « العـــائلة » كما يسميها ، وإن منصـــب رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء أو أية وظيفة أخرى ، كلهـــا دون الوظيفة التى يحبها ويترنم بها ••• رب العائلة •

وقـــد حزنا نحن المؤيدين المعارضين لأن الرئيس السادات ألف حزبا ، حزنا لأن يصـــبح السادات رئيسا لحزب كســـائر رؤساء الأحزاب ، وهو عنـــدى أكبر من أى حزب ينشـــأ فى البـــلاد •

وعجبت أن ينزل السادات درجة ، اذ قال لنـــا فى خطبـــة أنه اضطر الى أن « ينـــزل » الى الشـــارع السياسى ليواجه مختلف التيارات ويحـــكم قبضته على مسار الديمقراطية حتى لا يفلت الزمام •

« ونزل » الســـادات وألف حزبا •••

---

(١) تم اجتماع الأســـاتذة بالرئيس ثلاث مرات فى شـــــهر سبتمبر ١٩٨٠ •

أفهم أن يفكر أى مواطن فى تأليف حزب ليعتز بحزبه ويبرز عن طريقه ، ويكبر بانتشاره ، ويعلو على أكتاف أعضائه ، ويستند اليه فى الشـدائد والملمات ، وقـد ينجح هـذا المواطن وقـد يفشل فان نجح كان بها وان فشل فلن تخسر البلاد شيئا .

أما الرئيس السادات ، رب الأسرة المصرية ، فانه المواطن الوحيـد فى مصر الذى يخسر عندما يؤلف حزبا ، لأنه رئيس السلطة وزعيم الأمـة ، وهو القائل لنـا فى ورقة أكتـوبر ، إن أى حزب ينشأ فى حجر السلطة لن يكون أعضـاؤه الا من المتسلقين نهازى الفرص .

ولم يكن السادات رحمه الله فى حاجة الى حزب من هـذا اللون ، بل لم يكن فى حاجة الى حزب على وجه الإطلاق ، فكل المصريين حزبه ، وكل المصريين أولاده وان اختلف بعضهم معه ، واذا كان « نزوله » الى الشارع السياسى يعنى تشجيع الآخرين على انشاء الأحزاب تعميقا للديمقراطية كما يقال ، فان هـذا الغرض للأسف الشديد لم يتحقق ولن يتحقق ، وآيـة ذلك ما تم فى تأليف أحد أحزاب المعارضة ، فقد أوحت الظروف التى قام فى ظلها الحزب بأنه وليد السلطة ، اذ ساهم فى انشائه وتكوينه رئيس الدولة حين دعـا بعض أعضـاء حزبه الى توقيع عريضة

انشائه ، وعرض أن يكون واحـــداً من الموقعين (١) ! •••

واذا كان الرئيس الســـادات قــد خذلنا ورأى أن يكون رئيســاً لحزب ، ورضى أن ينحاز الى فريق من أبناء « أسرته » أو « عائلته » كما يسمى الأسرة ، ويجعل من هذا الفريق حزب السلطة ، فقــد أسقط من اعتباره فريقاً آخر من أبنـــاء وطنه ، ثم رأى أن ينشىء حزباً ليعارضه حتى تســتكمل الديمقراطية بهاءها ، فانى زعيم بأن ذلك ليس تعميقا للديمقراطية بـــل إن فيه تعميقـــا لجراحها •••

يجب أن يكون الرئيس ، أى رئيس — كما جاء فى سؤال أستاذ من جامعة الاسكندرية — فوق الجميع ، الكل أبناؤه ، على أن يبقى فى ســقف القبة يســوس الأمور ، ويقضى بين الأحزاب المختلفة أو المتناحرة ، باعتباره رب الأسرة كلها لا رب فريق منها ، والله أعلم بقدر هذا الفريق ومكانته عند الشــعب وجماهيره إذ يصرخ الواقع بأنه رحمه الله نقض ورقة أكتوبر فى رئاسة الحزب الوطنى ، وأنه غامر بصــيته وتاريخه بقبول هــذه الرئاسة ، فقــد اتهمت المعارضة فى وضوح لا يقبـــل الشك ، وفى أكثر من مقال نشر فى صحفها أن الحــكومة قـــد زيفت الانتخاب تزييفا صارخا ، ولم يستطع أحد من المسؤولين

(١) يراجع خطاب الرئيس فى جامعة القناة التى شـــاهدنا احتفالاتها عبر التليفزيون بتاريخ ١٥/١١/١٩٧٨

أن يرد على هذا الاتهام الخطير ، أو يهرع الى القضاء ليحاسب كاتب هذه المقالات مما يؤكد صحة ما ذهبت اليه المعارضة فى هذا المقام (١) .

ومن المؤسف أن كثيرين من أعضاء هذا الحزب فى مجلس الشعب قد حامت حولهم شبهات عن انحرافهم ، ثم ثبت بالدليل القاطع أن الانحراف كان أخطر مما تخيله المواطنون ، فقد كشف المدعى الاشتراكى أن بعض أعضاء هذا المجلس المنتمين الى الحزب الوطنى من تجار المخدرات ومن المستغلين لنفوذهم هنا وهناك ، وقد تحفظ على بعضهم وعلى ثرواتهم التى بلغت عشرات الملايين من الجنيهات غير الأراضى الزراعية والعقارات ، ومن أفلت منه وقع فى يد السلطات السعودية التى قبضت على نائب من حزب العمل وهو فى طريقه لأداء العمرة ، فاذا هو فى طريقه الى الأراضى المقدسة لتصريف كمية ضخمة من الحشيش ! ...

وما أظن الحكم الذى صدر أخيرا سيكون آخر المطاف ، فقد حكم بالسجن خمسة عشر عاماً على نائب الحزب الوطنى

---

(١) راجع مجلة الشعب فى اواخر مايو ١٩٧٩ والعدد الصادر فى ٥ يونيو ١٩٧٩ والعدد الصادر فى ١٩٨٠/١٠/٧

عن رشيد ، كما حكمت المحكمة على معظم أفراد أسرته بالسجن مدداً متفاوتة ، وذلك بتهمة المتاجرة بالمخدرات (١) •

لذلك يحز فى النفس أن يرى الانسان رئيساً فاضلاً عف اليد واللسان ، مستقيم السيرة والسريرة ، حاسماً كالسيف ، عدواً لكل انحراف ، جاداً فى النظر للأمور ، عاشقاً لوطنه ، واسع الصدر ، كبير القلب ، يفيض بالمودة يغمر بها كل الناس ، يحز فى النفس أن يرضى هذا الرئيس الجديد أن يكون رئيسا لحزب جاءت بنوابه الى مقاعد مجلس الشعب انتخابات زائفة ، وانتظم بين صفوفه معظم المستغلين وتجار المخدرات الذين كشفت عوراتهم أحكام المحاكم وعراهم المدعى الاشتراكى ومزق ثيابهم فبين مخازيهم التى ضجت منها الأرض والسماء •••

وفى طرائق النظر الى الدستور ، كنت أود ألا يتم استفتاء يبيح حق الترشيح لمنصب الرئيس أكثر من مرتين كما نص على ذلك الدستور ، لأن هذه الإباحة ستحول الجمهورية الى ملكية ان شاء طاغية أن يحكم مدى الحياة •

كان يجب أن يكون الاستفتاء على اطلاق حرية الرئيس الراحل وحده فى الترشيح للمنصب أكثر من مرتين ، أو يكون الاستفتاء — وهو الأصح — على أن يبقى السادات رئيسا

(١) راجع صحف صباح ١٥ فبراير ١٩٨٢

للجمهورية مدى الحياة ، والحيثيات موجودة لهذا الاجراء فيما قدم لمصر من منجزات فى شئون الداخل والخارج على السواء ، ولكنها السلطة والسلطان ، وتقدرون فتسخر الأقدار •

ونعود الى الحزب الوطنى الذى أنشأه الرئيس السادات فنذكر أن بعض أعضائه يفتقرون الى فهم معانى الحياة الدستورية ، فهو مثلا حزب الأغلبية وليس الشعب المصرى ، فاذا فكرت الدولة فى خير لمواطنيها ، شمل هذا الخير الشعب كله لا الحزب الوطنى وحده مهما تكن أغلبيته ، والذى يعنينى هنا أن الدستور لم يقل إن حكومة الأغلبية توظف جهدها وخدماتها لحزبها فقط ، فهى حكومة الشعب كله كما أن نائب أى دائرة نائب عن الشعب كله ، فكيف يجىء فى صدر الأهرام أنه قد تقرر انشاء أربع مزارع نموذجية بالمدن الجديدة وتمليكها لأسر وشباب الحزب الوطنى (١) •

وتتوالى القرارات من هذا اللون المخالف للدستور ، والمخالف أيضا لطبائع الأشياء ، وبعض القرارات تثير الضحك ، وتكشف عن سذاجة بعض ساسة الحزب الوطنى الذين تنقصهم الدربة فى النشاط الحزبى أو الشؤون السياسية ، ومن ذلك ما أذاعه سكرتير الحزب فى اجتماع لشباب حزبه حيث أعلن

---

(١) راجع الأهرام فى ٩ يوليو ١٩٧٩ •

أنه فى سبيل « رفع المعاناة عن كاهل الشعب حتى لا يشكو بعد ذلك » تقرر تخفيض القسط الخاص باشتراك الشباب فى الحزب الوطنى من ستين قرشا الى ثلاثين قرشا ؟ ! (1) ..

وهكذا بنطق سـام من أمين الحزب رفعت المعـاناة عن الشعب وبطلت شكاياته ! ! ...

ومن طرائف سكرتير الحزب اذ ذاك ، أننا شاهدناه عـلى شاشة التليفزيون واقفاً مع كبار المسؤولين فى انتظار هبـوط طائرة الرئيس السادات عنـد عودته من كامب ديفيد ، فماذا فعل سـكرتير الحزب ؟ .

استن لنـا سـكرتير الحزب فى تلك المناسبة بروتوكولا طريفا ، فرأيناه يمشى وراء الرئيس ثم يصافح المستقبلين من رجالات الدولة كما يفعل الرئيس تماما ؟ ! ... وذكرنى منظره وتصرفه بصـديق من تلاميذنا فى معهـد الصـحافة ـ وهو اليوم أستاذ فى كليـة الإعـلام ـ وتخصصه فى أدب احـدى اللغات الأجنبية ، تعالى على أساتذته حين ضـموه الى عضوية اللجنة الحكومية التى ألفوها لتكتب التاريخ ، فظن الرجـل أنه بهذه العضوية قد أصبح من صناع التاريخ ؟ ! ! ...

---

(1) راجع جريدة الأخبار فى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٩

واذا كانت هـذه الحكايات الصغيرة لا تتصل بحياتنا الدستورية مباشرة ، الا أنهـا تعطى صورة لقوم يرون الدستور « كالبساط الأحمدى » يمكن لأى فرد أن يراه على النحو الذى يريده أو يستبيحه على ما يهوى ويشاء •

*

الذى أعلمه أن الدساتير التى عايشناها قبل الثورة حرمت على النواب أن يقبلوا نيشاناً من ولى الأمر أو من أى دولة من الدول الأجنبية خشية أن يحمل النيشان معنى استقطاب العضو لجانب هـذه الدولة ، كما أن منحه النيشان من حكومته قد يفسر على أنه رشوة من الحكومة لواحد من ممثلى الشعب الرقباء على الهيئة التنفيذية ، وعلى رأسها رئيس الدولة مانح النيشان ملكاً أو رئيساً للجمهورية •

لذلك دهشت حين منح رئيس الجمهورية فجأة قلادة الجمهورية لرئيس مجلس الشعب السابق الذى احتفظ بمقعده فى ذلك المجلس ، وهى أعلى درجات النياشين التى تهدى لرؤساء الدول (١) والنياشين تمنح عادة للمواطن إن أدى عملا طيباً لبلاده أو قدم مخترعاً مفيداً أو لأمور أخرى على هـذا الغرار ، أما أن يمنح عضو فى مجلس الشعب نيشاناً فذلك

---

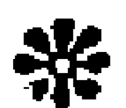
(١) راجع الأهرام ١١/١٠/١٩٧٩ •

على قـدر علمى — لا يتفق مع الدستور — واذا لم يـكن فى الدستور نص يمنعه ، فهو يجافى روح الدستور .

ومن الأشياء التى تزعج الحيـاة الدستورية ولا تتفق مع الديمقراطية ، وجود موظفى الدولة والقطاع العام أعضاء فى مجلس الشعب وهى بدعة لا توجد فى دساتير البلاد الديمقراطية، وقـد يكون معمولا بهـا — ولا أعـلم وجه الحق فى ذلك — فى البلاد الشيوعية ، ونحن للأسف الشديد لا نزال فى كثـير من خطانا نتأثر تلك البـلاد .

ولكنها ديمقراطيتنا التى تفضل ديمقراطية الانجليز ؟ ! ..

وإنه لشىء طريف حقاً فى نظامنا الدستورى ، أن يتعرض الموظف عضو المجلس للمساءلة من وزيره فى الصباح ، ثم يتعرض نفس الوزير للمساءلة من نفس الموظف فى المساء ! ..



وفى رأيى أن تنظيم جنازة الشاه وترتيب صـفوف المشيعين لجثمانه كان لطمة للدستور أيضـا فقـد اقتصر الصف الأول للمشيعين على رئيس الجمهورية ونائبه وبعض رؤسـاء فرق الجيش ، ثم جاء ترتيب رئيس مجلس الشـعب فى الصـف

الثانى (١) وهو أكبر ممثل للشعب ، ومكانه فى الدستور على ما أعتقد يأتى بعد رئيس الجمهورية ونائبه ؛ فوضعه فى المحل الثانى تحية غير دستورية لمجلس الشعب كله وخروج على روح الدستور •

لقد كان مكان رئيس مجلس النواب فى التشريفات منذ قيام الوزارة الشعبية الأولى التى ألفها الزعيم الخالد سعد زغلول فى سنة ١٩٢٤ هو المكان التالى لرئيس مجلس الوزراء ورئيس مجلس الشيوخ ، ولم يكن ذلك تقديرا لرئيس المجلس لذاته بل هو تقليد دستورى أخذت به جميع الشعوب الديمقراطية المتحضرة •

ولست أدرى كيف قبل رئيس مجلس الشعب أن يكون هذا مكانه لا فى جنازة الشاه بل فى كل مكان ، ولقد سمعت خطيباً يبدأ خطبته التى حضرها الوزير المختص وشرفها رئيس مجلس الشعب بعد ذلك ثم الى سائر السادة الحاضرين ! •

أفهم أن يجد رئيس المجلس حرجاً فى لفت النظر الى بروتوكول جنازة الشاه ، وان كان هذا الحرج لا محل له فى الحياة الدستورية الأصيلة ، أما أن يقبل المحل الثانى

---

(١) راجع الاهرام فى ١٩٨٠/٧/٢٨

فى حضرة وزير فتلك داهية تصيب الحياة النيابية فى الصميم ، وهو أمر لم يحـــدث مثله قط منـــذ جلس عـــلى هـــذا الكرسى ســـعد زغلول •

ومن المخالفات الدستورية أن تحرم الدولة فئة مستنيرة من حق الانتخاب ، ففى ١٦ مايو ١٩٧٨ صـــدر قـــرار بوقف الامتحان فى جميع مدارس الجمهورية حتى تتـــاح الفرصـــة للعاملين فيهـــا بالإدلاء بأصـــواتهم فى صـــناديق الانتخـــاب الا الجامعات فقـــد أمرت الحـــكومة أن تستمر امتحاناتها فى الصـــباح والمســـاء ، وبذلك حرم الأساتذة والموظفون فيها من حق التصـــويت ، وحـــرم عشرات الألوف من الطلبة والطالبات من ممارسة حقهم الدستورى ، وقيل إن هـــذا القـــرار كان وراءه خبىء ! فكثير من الطـــلاب والطالبات ينتمون الى جماعات لهـــا رأى فى الشـــؤون الداخلية لا يتفق ورأى المســـؤولين ، وانتشارهم فى مواقع الانتخابات فى الريف أو فى الحضر قـــد يكون من شأنه تغيير نتائج المعركة وهو مالا يريده المشرفون على الانتخابات ! •

وبهـــذا الموقف عطلنا حقاً دستورياً لفئـــة من الناس ، وهو تصرف غير سليم من السلطة ، لأن هؤلاء الشـــبان والشـــابات ليسوا جميعا على خـــلاف مع النظام ، ومن يخالف منهم النظام لا يؤثر على النتيجة العامة لذلك الانتخاب ، وهبهم قد نجحوا

فى زيادة المعارضين واحداً أو اثنين أو عشرة فى أحسن التقدير ، فما الخـوف منهم والحـزب الوطنى قـد فـاز بالأغلبيـة الساحقة التى تسـد عين الشمس ، ويزحـم نوابه مقـاعد المجلس بالمئـات ؟ ..

ثم يجىء ما هـو أهم وأخطـر من كل الملاحظـات التى سجلناها فى هـذا الفصـل من الكتاب ، وهو أننا لا نفرق بين وظيفة « رب العائلة » أى رب « الأسرة » — لأن العائلة خطـأ شائع فى اللغـة — وبين وظيفة رئيس الجمهورية .

ان رب الأسرة حر يسوس أبناءها على ما يحب ويريد ، فهو مثلا فى الوقت الذى يدلل فريقـاً من أبنـائه نراه يعنف ويقسو مع فريق آخر ويسميهم الرذالات والسفالات ويصفهم بقـلة الأدب وقلة الحيـاء .

الأب حر فى أبنائه ، له أن يرحمهم أو يقسـو عليهم ، له أن يحبهم أو يكرههم ، لـه أن يغـدق عليهم أو يحـرمهم من الميراث ! فلرب الأسرة سلطة أقرتها النواميس وشرائع السماء وأوصـانا سبحانه إن شـدد علينـا رب الأسرة وأغلظ لنـا ألا نقـول له أف ولا ننهره ونرد بقول كريم ، وحتى إذا دعانا الى الكفر اعتذرنا عن دعوته فى أدب واحتشام .

أما رب الأسرة عندما يتوجه الى مجلس الشعب فعليه أن يخلع عباءة الوالد ويدخل فى ثياب رئيس الجمهورية ، فهـو مقبل على قوم وقرهم وحصنهم الدستور ورفع مقامهم إلى أعلى مقـام ، وأعطاهم لا حق مساءلة رئيس مجلس الوزراء وزملائه فقط ، بل ينسحب هذا الحق على رئيس الجمهورية نفسـه ، هـكذا قال الدسـتور ونصـت مـواده ، ولا داعى لذكرها فنحن نعرفها وكان يعرفها رب الأسرة فهـو واضـع هـذا الدسـتور •

وعندما يقول رئيس الجمهورية لممثلى الشعب « أنا عودتكم على الصراحة لا على الوقاحة » فقد جانب ذلك مواد الدستور التى وضعت الحـدود بين رئيس الدولة وممثلى الشـعب •

صحيح أن الوالد معـلم مهما يكن بين أبنائه من علمـاء ، وهذا الوالد نفسه يفخر بأننا أحفاد أهل العـلم ولا ينقصنا العـلم بالأشياء ، وأن سبعة آلاف سنة من الحضارة تجرى فى دم أبناء هذا الشعب ، فاذا جاء رئيس الجمهورية ليعـلم زبدة هذا الشعب ، فهو هنا رب الأسرة وليس رأس الدولة ، لأن رأس الدولة يعلم أن الدسـتور ليس فى بنـوده بنـد يسمح لأى مواطن مهما يعـل قدره أن يبكت أعضـاء مجلس الشعب فى حرم قاعتهم ولقاعتهم قبة تعـلو كل القبـاب •

وعندما يرى رئيس الدولة رأياً سيئاً فى بعض أعضاء مجلس الشعب ، فان عليه — على قدر فهمى للأمور — أن يدعوهم مع بقية أفراد الأسرة بعيداً عن « حرم » المجلس « الموقر » الى أى اجتماع يعقده فى قاعة واسعة أو سرادق فسيح ، فيجرى عليهم ما يجرى على اخواتهم أبناء الأسرة من توجيهات يملك فيها الوالد حق الزجر والتوبيخ •

رئيس الدولة أب لنا ، فى عيوننا ، وفوق رؤوسنا ، أما مؤدب لممثلى الشعب فذلك أمر يخالف الدستور الذى رتب الحقوق والواجبات وجعل من نواب الشعب سلطة فوق جميع السلطات •

* * *

ولقد بلغ الاستخفاف بعقول الناس وامتهان كرامتهم الزعم فى مقالات الصحف ، والخطب من فوق المنابر بأن ديمقراطيتنا أفضل من ديمقراطية الإنجليز ؟ ! وآية ذلك أن الملكة عندهم تستطيع أن تحل البرلمان ، بينما رئيس الجمهورية فى مصر لا يمكنه ذلك إلا بعد استفتاء يجريه ! •

والصحيح أن الملكة لا تملك حل البرلمان إلا أن يطلب منها ذلك رئيس مجلس الوزراء حين يتبين لحكومته أن القضايا المطروحة فى البرلمان لابد من أخذ رأى الشعب فيها •

والصحيح أيضـا أننا نجرى الاستفتاء على حل مجلس الشعب ــ وهو ما لم يحدث قط ــ بقـرار يصـدره رئيس الجمهورية وحده ، وكان عند رئيس الجمهورية رجال أكفاء ومدربون على اجراء الاستفتاءات ، وما أكثرها ، بما تسـعد نتائجها سلطان ذلك الزمان ، فهى دائمـا عند حسـن ظنه ، وهى دائما لصالحه وصالح حزبه ولا يقـل المؤيدون فى كل استفتاء عن ٩٩ فى المائة من الملايين الذين ذهبوا إلى صناديق الانتخاب أو لم يذهبوا ! ولم يتحدث بذلك المصريون وحدهم ، بل كان كل استفتاء يجرى تتحدث عنه ساخرة صحف العـالم الخارجى وإذاعاته وتليفزيوناته .

إننـا خـير أمـة اصطنعت خير ديكور للديمقراطية التى لا تعرف أمة حرة مثيلاً لذلك الديكور عبر آلاف السنين منذ ديمقراطية اليونان والرومان إلى ديمقراطية الإنجليز ...

الشبان الحائرون

الشبان الغر الميامين فى حيرة يقرءون الكتب المدرسية ، وكتب التاريخ وكتبنا السياسية ، والصحف الرسمية التى تصدر فى البلاد وهى الأهرام والأخبار والجمهورية ، وسائر مجلات الحكومة ، ويستمعون الى الخطب ، والإذاعات فيصابون بالدوار ...

الكتب المدرسية تحدثهم مثلاً عن سعد زغلول حديثاً طيباً بعد ثورة مايو التى أفرجت عن تاريخ ذلك الزعيم ، وتقول كتب الرافعى وغيره من المؤرخين إن مصر جاهدت الإنجليز والقصر جهاداً مريراً على مدى سبعين عاما ، وإن من بين المصريين من أعدم أو قتل أو نفى أو شرد فى سبيل تحرير البلاد من الاستعمار ، ومن أجل ديمقراطية سليمة تشل يد الطغاة من الحكام .

ويقرءون الكتب السياسية التى صدرت بعد نصر أكتوبر فى سنة ١٩٧٣ فيرون من بينها كتباً تمجد عبد الناصر وعهده ، وكتباً أخرى تؤثم العهد وصاحبه ...

ثم يستمعون الى الخطب الرسمية عبر التليفزيون أو عن

طريق الصحف والإذاعة ، فاذا كل ما كان قبل الثورة قبض ريح ونهاية عهد من الفساد وخاتم زمن من الخنوع والاستسلام ...

ثم يجلسون الى آبائهم وأجدادهم وينصتون الى روايات وحكايات تناقض الخطب الرسمية وكل ما جاء فى الصحف والإذاعات .

ويؤمنون بعبد الناصر يوما ، ثم يذكرون بالخير زعماء ما قبل الثورة يوماً آخر ، ثم يقرءون المقالات والأحاديث والكتب التى كتبها زملاء عبد الناصر وأصحابه فى مجلس الثورة ، فاذا هى سم وعلقم ، ويقرءون عن النحاس كتباً هى قمة التكريم للزعيم وجهاده ، ثم يصيبهم الغثيان عندما ينصتون الى إهانة الرجل من على المنابر أو فى بعض صحف الدولة وهو عند ربه لا يستطيع رداً أو نفياً لما يتهمونه به من التخاذل والفساد .

وكان لهؤلاء الشبان الحائرين فى عهد السادات رحمه الله زملاء لهم شبوا فى عهد عبد الناصر غفر الله له ، وقد غسل أمخاخهم بالشعارات الضخمة والأمانى العظيمة والوعود بالسيطرة على العالم العربى ورفع راية مصر فوق بقاع أفريقية ، وتأديب الاستعمار بالقضاء عليه فى كل مكان .

وكان الشبان أيام عبد الناصر يرون أن تاريخ مصر يبدأ بوجود ذلك الزعيم ، وأنه لا تاريخ لمصر قبـل تاريخه ! ٠٠٠ وكنا إذا حاولنا أن نبصرهم بحقائق التاريخ استمعوا لنـا حينـاً فى صمت ثم رفضوا أحيـاناً وفى قحـة أن يصـدقوا ما نحـكى ونقـول ٠٠٠

وجاءت الهزيمة المنكرة فى سنة ١٩٦٧ فغسلت من عقولهم ما ثبته فيها عبد الناصر من شعارات فارغة وأحـلام تافهة وأمانى مستحيلة التحقيق ، وترنح هُبَـل فوق عرشـه ، ومضت مظاهراتهم تهتف بسـقوطه وسـقوط عهـده لا فى القاهرة وحدها بل فى مدن مصر كلها حتى بدا النظـام يتهاوى لولا أكذوبة سموها بيان مارس الذى وعد باطلاق الحريات ، وتأليف وزارة معظمها من أساتذة الجامعات ، ومعظمهم للأسف الشديد من عيون النظام وأدواته فى الكليات ٠٠٠

ومضى عبد الناصر الى ربه وجاء السادات ، فإذا حـيرة الشبان أشـد وأنكى من هـذا التضـارب فى الآراء ، ومن فيض الكذب والصدق يمشيان جنباً الى جنب ، لا يحسـم الأمر بينهما رواة عدول تجردوا من الهـوى أو الغـرض أو الشـبهات ٠

وحتى نقضى على حيرة شباب اليوم أود أن ينسوا ما سجله

المخضرمون من مدح وثناء فى زعماء ما قبل الثورة وخاصة الزعيم الكبير مصطفى النحاس ، فقد يكون الوفاء لذكراه راجعاً الى تعصب لكل ما كان قبل الثورة من مثل ومنجزات .

ثم أرجو أن يسقطوا من حسابهم كل ما نشر من كتب ومقالات تعرى عهد عبد الناصر من كل فضيلة وتأبى أن تكون له حسنة من الحسنات ، فقد يكون البعض متأثراً بالجراح التى خلفها عهده فيهم أو فى ذويهم ، وترك آثارها تنز بقيح من الكراهية وشهوة الانتقام .

ثم أوصيهم بغض الطرف عما كتبه زملاؤه رفاق السلاح من أعضاء مجلس الثورة ، يعددون سوآته ، وهم جماعة سمحت ذممهم أن يؤثموه وهم شركاؤه فى كل ما أخذوه عليه ، بيْد أنهم يطفحون بالغل والحقد ، لأنه لفظهم ونحاهم عن السلطة ، وسحب عن جباههم أكاليل الغار التى توجهم بها وعاشوا فى ظلها طغاة وفراعين .

وأقول لهؤلاء الشبان ليكن مرجعكم فيما قيل عن عهد ما قبل الثورة وعهد عبد الناصر مصدرين ، أولهما ما رواه الرئيس السادات فى كتابه « البحث عن الذات » عما عايشه من أحداث قبل الثورة وبعدها ، وليس المؤلف هنا عدواً لعبد الناصر بل هو صديقه الصدوق الذى وصله

بالمودة وغمره بالإيثار حتى مات ، وكان السادات موضع حبه وثقته حتى جعله خليفته حين يحم به القضاء ، وكان السادات فى كتابه هذا مؤرخاً محايداً لم يبخل على خصومه القدامى بكلمة الحق يقولها فى وضوح شأن المؤرخ صادق النيات .

والمصدر الثانى الذى أنصح شبابنا بالرجوع اليه ، أحكام القضاء التى نشرت بعضها الصحف وأخفت بعضها الآخر ، وليست هناك حيدة كحيدة القاضى حين يقول كلمته فيما أمامه من قضايا التعذيب التى زحمت ساحة القضاء .

ومن بين ما سجله السادات عن ذكرياته السياسية قبل الثورة حديثه عن موقف مصطفى النحاس من إعداد جيش قوى للبلاد فيقول « كان النحاس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣٦) وبمقتضى هذه المعاهدة سمح للجيش المصرى أن يتسع ، وهكذا أصبح فى الإمكان أن ألتحق بالكلية الحربية » ثم يستطرد قائلا « قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصرى ضيق الرقعة ضئيل الفاعلية وكان دخول الكلية الحربية قاصرا على أبناء الطبقة العليا » [١] .

(١) البحث عن الذات ص ٢٢ .

واذن فالنحاس كان صاحب الفضل فى تطوير الجيش وإعداده ليكون درع الوطن أمام عاديات الزمن ، اذ وسع رقعته ، وقوى فاعليته ، وأفسح لأبنـاء طبقات الشعب الأخـرى من المواطنين مكاناً لهم فى معاهده ، وكان الالتحاق بها قبل المعاهدة مقصوراً على أبناء الذوات ! .

ثم يقول رأيه فى النحاس قبل حادث ٤ فبراير « ومازلت أذكر كيف كنا ونحن طلبة نخرج الى الشارع مرتين كل يوم ننتظر ذهاب النحاس الى بيت الأمة وعودته منه لنراه ونهتف ونصفق له » ثم يختم برأيه فى الزعيم الجليل قائلا « كان بطلاً أسطورياً ورمزاً فريداً للوطنية والفداء والعطاء » [١] .

ومعنى ذلك أن النحاس ــ فى ذمة السادات ــ بقى منذ وفاة الزعيم الخالد سعد زغلول سنة ١٩٢٧ الى فبراير ١٩٤٢ أى زهاء خمس عشرة سنة « بطلاً أسطورياً ورمزاً فريداً للوطنية والفـداء والعطـاء » .

وللتاريخ أيضاً أذكر للشبان أن الوثائق البريطانية قـد أثبتت براءة النحاس من قضية ٤ فبراير [٢] ولم يكن المصريون

(١) البحث عن الذات ص ٧١ .

(٢) راجع الديمقراطية بين شيوخ الحارة ومجالس الطراطير ــ (للمؤلف) وفيه فصل بعنوان « النحاس الزعيم المفـترى عليه » وقد أثبتنا فيه بما لا يقبل الشك أن النحاس كان بعيدا كل البعد عن هذا الموضوع بل كان موقفه عظيما فى تلك المحنة . ص ١٣١ وما بعـدها .

على أيام النحاس فى حاجة الى وثائق لا من مصر ولا من انجلترا لتثبت لهم هذه البراءة ، فهم يعلمون أن زعيمهم كما وصفه السادات ، بطل أسطورى ورمز فريد للوطنية والفداء والعطاء ، لذلك كان أكثر من تسعين فى المائة يؤيدونه ويؤمنون برسالته ، وآية ذلك أن النحاس اكتسح منافسيه فى الانتخابات سنة ١٩٥٠ .

وهناك آية أخرى على مكانة النحاس عند مواطنيه وضحت وضوح الشمس فى عهد عبد الناصر ، فقد حكم ذلك الدكتاتور على زعيم مصر بالموت الأدبى فحرم على أدوات الإعلام أن تذكر اسمه أو تنشر صورته منذ قامت الثورة حتى قضى ، فلما علم الناس بوفاته شيعه الى مثواه أكثر من مليون مواطن ، هاتفين بذكره وأمجاده ، وكان استفتاء دقيقاً وصادقاً ضد السلطان وأدواته التى اضطرت الى اختطاف النعش وتفريق المشيعين بخراطيم المياه وضربهم بالعصى وإرهابهم باطلاق الرصاص ثم قبضوا على مئات منهم وأنزلوهم المعتقلات والسجون لعدة سنوات عذبوهم فيها أشد التعذيب ، وكل ذلك لأن المصريين أصروا على الوفاء العظيم لرجل عظيم [1] .

---

(١) أبدت وكالات الأنباء جميعا وصحف العالم الكبرى دهشتها من أن تكون للنحاس هذه الجنازة الأسطورية بعد هذه المدة الطويلة من حكم الطغاة لمصر وان تكون له كل هذه المكانة فى قلوب شعبه الوفى الأمين .

وهكذا أثبتت الآيتان ، اكتساحه الانتخابات ١٩٥٠ وجنازته التى لم تشــهد لها مصر نظـيرا إلا جنــازة ســعد زغلول ، أثبتت الآيتان أن الرجل منذ بدأت زعامته حتى قامت الثــورة كان تلك الصورة التى رسمها لنا الرئيس السادات ، وليس هو الرجل الذى جردته من كل فضيلة الخطب والمقــالات التى استمع اليها الشبان أو قرءوها فى الصحف والمجلات .

وننقل عن السادات من كتابه المذكور كيف كانت الحيــاة السياسية قبل الثورة حيــاة مشرفة لأصحابها اذ حكى لنــا أن النحاس ذهب الى النادى السعدى ليلقى خطاباً سياسياً ضــد الحكومة « فلا أحــد يملك أن يمنع النحاس من إلقــاء خطابه ، رغم أن أحمد ماهر كان فى الحكم والنحاس طبعــاً خــارج الحــكم ، ولكن كانت هنــاك قيم وأصــول يحترمها الجميع فى ذلك الوقت » [1] .

واذن ، فلم تكن الحيــاة السياسية قبــل الثورة حيــاة فارغة بل كانت فيها قيم رفيعة تفرض احترام الآراء المعارضة مهما تعنف تلك الآراء .

ثم يقول فى موقع آخر من كتابه ان مكرم عبيد « أصــدر (الكتاب الأســود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشــف عن

---

(١) البحث عن الذات ص ٧١ .

أسرار تسىء الى حـكم الوفـد •• ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس » [١] •

وللتاريخ أذكر أن نشر الكتاب وتوزيعه وتداوله قـد تم والأحـكام العرفية معلنة إبان الحـرب العالمية الثانية وكانت دائرة الرحى على حـدود البـلاد ، وكان لرئيس الحـكومة أن يستند اذا شاء الى هذه الأحكام ويصادر الكتاب ، ولكن حرية القلم كانت لها حصانة حتى فى أحلك الأيام •

* * *

ثم يجلى لنـا السـادات فى صفحات كتـابه كثيرا من الخصائص والصـفات التى حكمت سـيرة عبد النـاصر وكشفت لكل ذى بصيرة نوايا الرجل ومقامه بين الزعامات •

وقد تقابلنا مع الرئيس السادات فى صفحة ٨٨ من كتابه «البحث عن الذات» وكان أول لقاء خاص بالرئيس عبد الناصر ، وقد حدثنا أول ما تحـدث عن موقف سـلفه فى أمـر المحـامين والقضاة ، فأما المحامون فكادوا أن يفلسوا إبان حكم الثورة ، وذكر أنهم قبل تلك الثورة كانوا يعيشون فى رخاء وعلة ذلك فيما يقول السادات أن سـيادة القانون عـُطلت « فى العشرين سنة الأولى للثورة ••• فلم يصبح هناك أى مجال للمحاماة أو القضـاة » •

---

(١) البحث عن الذات ص ٦٠ •

ويعنى ذلك يا بنىّ أن مصر عاشت فى عهد عبد الناصر كما تعيش الضوارى فى الغابات ، فقانون الغابة كما تعلمون ألا يكون هناك قانون ••• والسيادة للقوى والضعيف فيها مأكول ، هكذا كانت حالة مصر فى العهد الناصرى ، عهد القيم والأخلاق ! •••

ثم مضينا مع الرئيس السادات نتنزه فى بساتين عبد الناصر ، فاذا هو يحكى لنا أن صاحبه كان داخله مليئا « بتناقضات لا يعلمها إلا الله » ثم يقول « ويحتم على واجبى كصديق ألا أكشفها أو أوضح عنها » ثم يكشف هذه المتناقضات فيقول إن عبد الناصر قضى حياته كلها « بين انفعال وانفعال ••• القلق يأكله أكلا فقد كان يفترض الشك فى كل إنسان مسبقا ، وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس اليه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها » [1] •

وما عرفنا فى التاريخ زعامة تضطرم فى نفسها كل هذه الصفات إلا وكان حكمها بلاء على الشعب بجميع طبقاته كما يقول السادات •

---

(١) البحث عن الذات ص ٩٢ •

ويذكر صاحب الكتاب أن علاقتــه بعبد الناصر كانت « علاقات احترام وثقة » وليست « صداقة على الإطلاق » ثم يستطرد « ولم يكن من الســــهل على عبد الناصر أن ينشىء علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان وهو المتشكك دائما ـــ الحــذر ـــ المليء بالمرارة .. العصبى المزاج »[1] .

وهكذا حكمت مصر ثمانية عشر عاماً فى إطار من الشــك والحذر والمرارة وعصبية المزاج .

ويكفى هذا القــدر من وصف لأخــلاق عبد الناصر ، ففى كتابه كثير جداً من هــذا الذى ذكر لنــا طرفاً منــه ، ولو سجلناه لاحتاج الأمر الى عشرات من الصفحات .

ويعنينى هنـــا أن أبين رأى الرئيس السادات فى سياسة سلفه نحو جماهير شعبه ، فقد ذكر فى كتابه وهو يتحــدث عن القوانين الاشتراكية التى أصدرها عبد الناصر فى ٢٣ يوليو ســنة ١٩٦١ لصــالح جمــاهير الشــعب الذى كان يبحث عن أهم شيء افتقــده فى النظام الناصرى « وهو الحرية .. فعندما لا يكون الإنسان آمناً على نفسه لا يمكن أن يعوضــه شيء عن هذا » وكان عبد الناصر ـــ والكلام للســادات ـــ « يتصــور أن الشعب مرتاح وسعيد وراض عن أســلوب الحكم

---

(١) البحث عن الذات ص ١١٤ .

لأن الناس عندما تراه تهتف له وتهلل وتصفق ••• ولكنه نسى أن فى ضمير كل مواطن — حتى فى الطبقات التى يعتقد أنه يخدمها — حقيقة أساسية تطغى على كل حقيقة أخرى •• وهى الإحساس بالحاجة الى الحرية والأمن » [١] •

وانها لشهادة من الرئيس السادات نعتز بها فى كل ما ذكرناه عن العهد الناصرى الذى يعلم عنه الناس ، كل الناس ، بأنه كان عهداً لا حرية فيه ولا أمان •

ويمضى السادات يعدد ألوان الفساد والتسيب بين العسكريين والمدنيين على السواء ، فالعسكريون اتخذوا من حرب اليمن « عملية انتفاع واستغلال » [٢] والمدنيون رأس وزارتهم على صبرى وهو « بطبعه » يخشى المسئولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه •• فعبد الناصر بطبيعته الدكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب « وكان مدير مكتبه أى على صبرى رئيس الوزراء ميالا بطبعه الى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل فى الخفاء » [٣] مما كانت نتيجته كراهية الشعب له كراهية تنذر بالخطر على النظام الأمر الذى دعا عبد الناصر الى إقالته •

---

(١) البحث عن الذات ص ١٧١ ، ١٧٢ •

(٢) البحث عن الذات ص ١٧٥ •

(٣) البحث عن الذات ص ١٧٧ •

وانتشرت شكاوى الناس من المظالم التى عمت البــلاد وراح ضحيتها الآلاف بين « تعذيب وإهانة وامتهان لكرامــة الإنســان » (١)

ويقول السادات « لا أستطيع أن أجزم بأن عبد الناصر كان على علم بما حــدث •• ولكننى فى الوقت نفســه لا أستطيع تبرئته من المسؤولية فالرئيس دائماً هو المسئول مهما كانت أخطاء معاونيه ومساعديه » (٢)

رحم الله الشــاعر الذى قال :

إن كنت تــدرى فتــلك مصـيبة

وإن كنت لا تدرى فالمصــيبة أعظم

ويقول السادات ، إن عبد الناصر كان « يعتبر أى احتجاج أو اعتراض أو نقــد أو حتى محاولة لتقصى الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصــدور ثورة مضــادة وكان اجراؤه للقضــاء على هذه الثورة أقسى وأعنف ما شــهدته مصر ف

---

(١) البحث عن الذات ص ١٧٩

(٢) البحث عن الذات ص ١٧٩

تاريخها ، اذ شكل لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع ، وكانت قمة الكبت والإرهاب والإذلال » (١) .

ويقول السادات أنه عندما تولى السلطة واجه « جيل الحقد الذى بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإبن أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشية •• وهذا فى تقديرى أقبح ما يمكن أن نصل اليه » (٢) .

ثم يسجل ــ رحمه الله ــ « وهكذا تحول الناس الى « مساخيط » أو أصبحوا دمى فى أيدى حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون •• فلم يعد مسموحا للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا فى أرزاقهم ، ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسيروا الى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شىء يدور حولهم ، وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون » (٣) .

ثم يقول الرئيس السادات فى كتابه « وقد لاحظت أن

---

(١) البحث عن الذات ص ١٧٩
(٢) البحث عن الذات ص ٢٢٢
(٣) البحث عن الذات ص ٢٢٣

أكبر خطـأ ارتكب فى حـق الإنســان المصرى كان هو زرع الخــوف •• فبدلاً من أن نبنى الإنســان أصبح كل همنا أن نخيفه •• والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب ، فلقد كانت أرزاق الناس كلها للحاكم ان شاء منح وان شاء منع وكان المنع مصــحوباً فى أغلب الأحيان بمصــادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخــاذ اجراءات ضــدهم » (١)

ثم يشرح لنا وهو يتحدث عن التركة التى ورثهــا عن عبد الناصر أنه لم تكن هناك سياسة خارجية اذ كانت هــذه السياسة تخضع لانفعالات سلفه وكانت الحالة الاقتصــادية أســوأ من السياسة الخارجية (٢)

أعود فأكرر دعوتى للشبان بأن يقرءوا كتاب « البحث عن الذات » فان فيه أضعاف ما سجلته لهم من صفحات هــذا الكتاب ، حتى يرتووا من المصدر الأول الزاخر بالحقــائق التاريخية التى دونها رجل فوق مستوى الشبهات •

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٣
(٢) البحث عن الذات ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦

ثــم مــاذا ؟

وإزاء كل هذا البلاء الذى طرحه لنــا السادات عن عهد عبد الناصر كانت دهشتنا مذهلة حين اســتمعنا الى ما قاله رحمه الله على لســان نائبه وهو يلقى كلمة الرئيس فى الذكرى العاشرة لوفاة عبد الناصر (١) ٠

قرأ السيد نائب رئيس الجمهورية كلمة الرئيس الراحــل فقــال « إن ابن مصر العظيم جمال عبد الناصر قائد الثــورة وباعث مصر الحديثة الذى وهب نفسه لوطنه وأمته فعــاش ومــات بطــلا » الى أن يقول « إن ســيرة عبد الناصر هى ملحمة من النضــال المتصل فى سبيل المبادىء والقيم » ؟ ! ٠٠

ان نائب الرئيس عاش معنا يجتر الأسى والألم قرابة ست سنوات بعــد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ٠

أن نائب الرئيس كان بطلاً من أبطالنا الذين ثأروا لتلك الهزيمة النكراء عندما كان قائداً للقوات الجــوية فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، بل رد بشجاعته وخططه كرامة القــوات

---

(١) جرائد الصباح فى ٢٩ سبتمبر ١٩٨٠

الجوية التى حمّلوها عدلاً أو ظلماً مسؤولية انهيار قواتنا سنة ١٩٦٧ .

كيف يقول هذا النجم اللامع فى حرب أكتوبر إن عبد الناصر عاش ومات بطلا ؟

لقد مات عبد الناصر واسرائيل تحتل ثلث أراضينا بعد أن هزمته شر هزيمة فى تلك السنة المشؤومة .

أما عن سيرة عبد الناصر وكيف كانت « ملحمة من النضال المتصل فى سبيل المبادىء والقيم » فهو حكم من السادات يناقض أحكامه التى سجلنا طرفاً منها نقلاً عن كتابه البحث عن الذات ، وكذلك سوف ترد على هذا المديح أحكام القضاء ، وليس بعد حكم القضاء قضاء ...

وقد تخيرت للشبان أربع قضايا من قضايا التعذيب ، ونشرت لهم فى هذه الصفحات حيثيات أحكامها ، غاضاً الطرف عن أحكام أخرى تؤثم العهد وصاحبه ، وهى أكثر من أن تعد وجديرة بكتاب لا صفحات فى كتاب .

وأول القضايا التى سنعرض لحيثيات حكمها كانت قضية كمشيش ، وهى قضية تحدث عنها العالم كله لتعدد

ألوان التعذيب فيها ، فقــد أراد عبد الناصر أن يقضى على أسرة الفقي وهي أكبر وأقدم أسر تلك الناحية ، فسلط زبانيته عليها وعلى من يجرى فى فلكها ، وكانت جريمة الأسرة أنهــا تجاهد « بلطجية » السوفيت الذين أرادوا نشر الشيوعية فى المنطقة بزعامة سيدة اسمها شاهندة •

وتحكى لنا حيثيات حكم محكمة الجنايات صنوف التعذيب التى اتبعت مع الأسرة ، رجالها وشبانها وأطفالها ونســائها ، ثم تسجل رأيها فى حكم البطل صاحب « المبادىء والقيم » •

ماذا قالت محكمة الجنايات ؟ [١]

« ان محكمة الجنايات تسجل للتاريخ أن الفــترة التى جرت فيهــا أحــداث هذه القضــية المثيرة **هى أســوأ فترة مرت بها مصر طيلة تاريخها القــديم والحــديث ، ففيهــا ذبحت الحــريات ، وديســت كرامــة الإنســان المصرى** • وان المحكمة وهى تسجل هذه الفظائع ، ينتابها الأسى العميق ، والألم الشديد ، من كثرة ما أصــاب الإنسان المصرى فى هذه الحقبة من الزمان ، من إهدار لحريتــه ، وذبح لإنسانيته ،

---

(١) راجع جريدة الأخبار الصادرة فى ٢٣ يونيو ١٩٧٨

وقتل لكافة مقوماته وحرياته ورجوليته وأمنه وأمانه وماله وعرضه • وان المحكمة تسجل للتاريخ أيضا وقلبها يتفطر **أن ما حدث فى هذه القضية لم يحدث مثله فى شريعة الغاب ولا البربرية الأولى** • وإن المباحث العسكرية الجنائية أمرت الرجال بالتسمى بأسماء النساء ، ووضعت ألجمة الخيل فى فم رب العائلة وكبير الأسرة ، ولطمت الرؤس والوجوه فيها بالأيدى كما ركلت بالأقدام **وهتكت أعراض الرجال أمام بعضهم البعض** ، وجىء بنسائهم وهددوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم ، **ودربت الكلاب على مواطأة الرجال** ، وتم ذلك فعلا بأمر المتهم الأول • وهدد رب العائلة واخوته باخراج جثة والدتهم وكانت حديثة الدفن للتمثيل بها أمام الناس واذلالهم أمام أهلهم ، **وتسجل المحكمة أن المخلوق الذى ينسى ربه ونبيه ويأمر الإبن بصفع أبيه هو مخلوق وضيع وتافه ومهين** » •

وقالت محكمة الجنايات فى قضية ضابط عذبوه وكان هذا التعذيب فى السجن الحربى فى أثناء اعتقاله بتهمة محاولة انقلاب الحكم سنة ١٩٦٧ ، وقد أثيرت فى هذه القضية حقائق ينْدى لها جبين الإنسانية وكيف كانت تحكم مصر ؟؟

« ووصل بها الأمر إلى ما لم يصل على أيدى حكام المماليك من

تكالب على السلطة وتكبيل الشعب بالحديد والنار والزج بالأبرياء فى المعتقلات »[١] .

وقالت محكمة أخرى « ان وقائع القضية جرت فى فترة حالكة السواد من تاريخ مصر . إذ كانت أعلى سلطة فى القوات المصرية المسلحة لاهية عن مصالح البلاد العليا منغمسة فى مجونها تاركة لأذنابها التصرف فى أمر البلاد والعباد ، **فعاثوا فى الأرض مفسدين وامتهنوا كرامة الإنسان المصرى وأهدروا آدميته ، وابتكروا ونفذوا من وسائل التعذيب والطغيان ما يعجز عنه الشيطان ، وأدى تفريطهم فى حقوق البلاد وإفراطهم فى إذلال المواطنين أن تجرع الشعب المصرى على أيديهم كأس هزيمة ٦٧ المريرة »**[٢] .

وجاء الحكم الرابع فى قضية تعذيب ضباط الجيش ، وهو يصور حكم « ابن مصر العظيم » الذى كانت حياته « ملحمة من النضال المتصل فى سبيل المبادىء والقيم » ! ... قالت المحكمة فى جريمة التعذيب « موضوع هذه الدعوى » انها « كانت سبة فى جبين الحكم المصرى يَنْدى لها الجبين خزياً وعارا ، ولعل فى حكم المحكمة ما يسدل الستار على

---

(١) جريدة الأهرام فى ٢٢ فبراير ١٩٧٩

(٢) جريدة الأخبار فى ١١ يونيو ١٩٧٩

حقبة من تاريخ مصر امتهنت فيها وأهينت كرامة الإنسان الذى كفل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨ حدها الأدنى بما نص فيه من أن جميع الناس أحرار متساوون فى الكرامة والحقوق ، وأن لكل منهم الحق فى الحياة والحرية والسلامة الشخصية ، وأنه لا يجوز استرقاق أو استعباد أى شخص ، أو تعريضه للتعذيب ، أو العقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية الماسة بالكرامة » ..

« حقبة من تاريخ مصر كانت فيها السيادة للسياط ، توصلاً للإرهاب أو للإلقاء فى غياهب السجون ، أو تقرباً وزلفى للحكام والرؤساء » ...

« حقبة من تاريخ مصر ساد فيها الظلام ، وسلط فيها سيف الاعتقال على الرقاب » .

« حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا وطغت عليها سمعة السجن الحربى بمصر » .

« حقبة من تاريخ مصر أعادت للأذهان ذكرى محاكم التفتيش وما كان يجرى فيها من مخاز وفظائع » .

« حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلادون إلى ابتكار وسائل للتعذيب ارضاء لشهوة التعذيب فى داخلهم ، حتى

لقـــد أدخلت على (الفَلَقَة) التقليـــدية وتم تطويرها لتكون أكثر ايلاماً وأشد تأثيرا » •

« حقبة من تاريخ مصر كان فيها السجن الحربى بمثابة التنين الرهيب الذى يخشى كبار القادة مجرد الاقتراب منه أو معرفة ما يدور فيه أو حتى سماع أخباره » •

« حقبة من تاريخ مصر كانت مصر فيها تأكل بعضها » •

« بأمر من كان كل هذا ؟ ! ولمصلحة من كان كـــل هذا ؟ ! ومن المستفيد من كل هذا ؟ ! » •

« أسئلة تطرح نفسها على استحياء ، تتساءل عما تعرف يقينا اجابته ، وقد شاءت عناية الله أن تحل بمصر اشراقة النور والحيـــاة بعد الظلام ، وتبزغ شمس الحرية ونور ســـيادة القانون ، وتعلو كلمة القضاء تنفيذاً لشريعة الله فى أرضه » [1]

ويرى الشبان فى الحيثيات الأربع ألواناً وأشكالاً من البلاء الذى نزل بوطنهم فى نظام عبد الناصر ، وفى حيثيات الحـــكم الأخير تتساءل المحكمة عن الآمر بكل هذا العـــذاب ، ولمصلحة

---

(١) نقـــلا عن كتاب ، تحيـــا الديمقراطية لمصطفى أمين ص ٦٥ ، ٦٦

من كان هذا العذاب الى آخر تساؤلاتها ، تشير باصبع الاتهام حين تقول إنها « تتساءل عما تعرف يقينا اجابته » .

الإجابة ، وإن كانت فى بطن المحكمة ولم تفصح عنها الا أنها تعلم أن المستفيد الأول والأخير من كل هذا يعرفه المواطنون ، كل المواطنين .

عبد الناصر وحاشيته ...

يا شباب

لقد سجلت لكم التاريخ الصحيح فى سيرة مصر قبل الثورة وبعدها ولا عليكم مما تسمعون أو تقرءون ، فكلها خطب إنشائية أو مقالات وكتب مأجورة ، وحسبكم ما قال الرئيس السادات فى كتابه ، وما سجلناه فى أحكام قليلة ، ففى ذلك كله الحق كله .

تأليه السلطان

من أحلام اليقظة التى نعيشها أن نتخيل أن حكم الفرد يمكن أن تكون نتائجه خيراً وبركة على الشعب ..

ان الدكتاتور منذ فجر التاريخ قد يكون بارعا فى ميادين الحرب أو السياسة أو قادرا على شق الطرق والأنفـــاق ، بيْد أنه آخر الأمر يفقــد كل ما بناه لأن مهـــارته فى البنـــاء والتشــــييد واجتهـــاده فى شؤون الداخل وسمعته العظيمة فى الخارج وقدرته فى ميادين النزال ، وبراعته فى اللعب بالألفاظ والشعارات ، كل ذلك دائما كان على حساب رعاياه أو مواطنيه الذين حولهم الى شعب من المساخيط كما يقول المغفــور له الرئيس السادات .

وما من دكتاتور إلا وقد مات مقتولاً أو معزولاً أو هــده المرض أو نفى بعيداً عن الأوطان .

وما من دكتاتور استعان بأهل الرأى والفطنة ، وانمـــا كانت دعائم عرشـــه تقــوم على أكتاف المنافقين والمستغلين وحثالة الناس ...

قيصر قتلوه بالرغم من انتصاراته الحربية ...

نابليون نفـوه وأذلوه فى سانت هيـلانه بالرغم من منجزاته العظيمة فى كل ميدان ...

هتلر انتحر بعد أن حول بلاده الى خرائب وركام ..

موسولينى شنقوه وعلقـوه وقدماه فى حبل ورأسـه فى الأرض تلعق التراب ...

بيرون دكتاتور الأرجنتين نفوه وعاش ذليلا فى المنفى ودفن كأى « هلفوت » لا تاريخ له ولا أمجاد ..

والغريب أن هذه الأمثلة لم تكن فيهـا عبرة لمن حـكم دكتاتورا بعد كل ما عرف من مصاب هؤلاء الطغاه ...

كيـف ؟

انه السلطان يحجب العبر عن كل سلطان ! ...

من الذى كان سببا فى كارثة مصر سنة ١٩٦٧ ؟ انهـم المنافقون الذين أدخلوا فى روع الرئيس عبد الناصر **أنه جـاء بما لم يجيء به موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام !** قالهـا محافظ ولم يعاقب على كفره بل رقى محافظـا للعاصـمة ثم

عين وزيرا بعد ذلك ، وكان قميناً بأن يرجم بالحصى والطوب ..

من الذى أفسد النظـام فى عهد عبد الناصر ؟ انهـم المنافقون الذين ألفـوا أغنية لا تقـال إلا فى ذكر الله سبحانه وتعـالى ...

لبيـك عبد الناصر لبيـك

انهم المنافقون الذين لم يرحمـوه من نفاقهم يوم وفاته فنشروا صورته تحتضن الكعبة الشريفة وتحتها أنه بعث نورا للناس ، تماماً كما بعث محمد عليه الصلاة والسلام ...

ثم مـاذا ؟

راح عبد الناصر وجاء السادات ، رجلا متواضعا يحنى رأسه اجلالا لتمثال سلفه فى مجلس النواب ، يستقبل الناس برحابة الصدر المأثورة عن كل ابن بلد أصـله فلاح ، يتأذى أن يستعيد ذاكرته على ضـوء العذاب الذى عاش فيه أحرار الناس الذين سجنوهم واعتقلوهم وعذبوهم وآذوا نسـاءهم وأطفالهم وأجاعوهم حين صادروا أموالهم أو وضعوهم تحت الحراسة ، ليقوم الحراس بسرقة ما كانوا يملكون من عقـار ومال وتحف ومصـاغ ، وحتى الثيـاب سرقوها أو باعوها لحسـابهم الخاص ...

جـاء السادات وفعـل العجب حتى استقطب جميـع النـاس •••

ثم مـاذا ؟

استفتح المنافقون دورهم الخـالد فبدأت الأغانى فى تمجيد الرئيس الطيب تُنشد فى الاذاعات والتليفزيونات •••

وبدأت صوره تنشر فى صحف الحكومة عدة مرات فى كل عدد يصدر من تلك الصحف ، وقد نشرت له ثلاثون صورة فى عدد واحد من تلك الصحف بين تمجيد وتأليه لذاته أو بين اعلان يفيض بالرياء ، وكانت الصورة تنشر أحيانا فى صدر الصحيفة بلا مناسبة الا النفاق الذى اعتاده موظفو تلك الصحف الذين كانوا يتسابقون أيهم يكون أقرب الى قلب السلطان ! •••

وبدأ الوزراء والمحـافظون يبعثون ببرقيات الولاء فى المناسبات والأعياد ، ونافسوا فى النفاق سائر أدوات الإعـلام ، ونسى المهنأ والمهنىء أن برقية من واحد من عامة الشعب ترسل للرئيس الطيب أصدق ألف مرة من برقيات الرياء •••

وكانت خطب الرئيس يستمع اليهـا الناس فى الإذاعة ويشاهدونها فى التليفزيون ، ثم تعاد اذاعتها مسموعة ومرئية فى اليوم التالى مرتين ان اقتصدوا وثلاث أو أربع مرات حين ترتفع حرارة النفاق •••

وحتى فى نشرات الأخبار التى تذاع باللغتين الفرنسية والانجليزية والتى يستمع اليها الأجانب وحدهم ، كانت خطب الرئيس تذاع باللغة العربية التى لا يفهمها المستمعون للراديو أو المشاهدون للتليفزيون ، وذلك إمعانا فى النفـــاق والرياء [١] .

وشاهدنا وزيرا يعلن للرئيس نتيجة احدى الاستفتاءات ، وقـــد وقف كأنه فى محـــراب ، وذكر عبـــارة « يا ســـيادة الرئيس » أكثر من ثلاث وثلاثين مرة ولم يستغرق اللقاء بينهما أكثر من عشر دقائق ، راح معظمها فى التزلف للرئيس بأروع العبـــارات ...

وقد اعتـــادت السيدة همت مصطفى المذيعة إذ ذاك فى التليفزيون أن تسجل للرئيس السادات حديثاً يوم مولده من كل عـــام ، فى قريتـــه ميت أبو الكوم . وقد أخـــذ الرئيس يحكى لها عن القاعة التى كان ينام فيها هو والأرانب ، وأراد أن يختصر فى ذكر ظروف حيـــاته فى تلك الأيام ، مستدركاً بأن هذا حديث ليس فى الموضوع الذى يهم البـــلاد ، فقالت

---

(١) حدث هذا من التليفزيون فأذاع باللغة العربية فى نشرة الأخبار الانجليزية خطبة الرئيس فى سيناء الساعة العاشرة من مساء يوم ١٣ فبراير ١٩٧٩ .

معقبة على رأى الزعيم بأن حديث القاعة والأرانب جزء من سـيرة مصر الخالدة على مر الزمان ؟ ! !

ولم أكن أعلم أن تلميذتى همت مصطفى على هذا القـدر من العمق فى تاريخنا المعاصر الذى بلغ ذروته فى الحـديث عن أرانب الرئيس التى دخلت التاريخ من أوسع الأبواب ! ...

ثم رحب المصريون بخطـا الرئيس السـادات منذ ألغى الحراسات وأغلق السجون والمعتقلات ، وانتصر فى أكتوبر ، وختم جهاده بكامب ديفيد ومعاهدة السلام .

ثم بلغ نفاق المنافقين ذروته بعد تلك الأحداث ، ودعمه نفاق وارد من الولايات المتحدة وأوروبا باعتباره بطلا للسلام ، وهذا حق فى مجمله ، فالسـلام كان أمنية مصر والعـالم جميعا على السـواء .

والرئيس السادات بشر والإنسـان يسعده ثناء الناس عليه ، وذكر أعماله بالتمجيد ، وتسـجيل منجزاته كل يوم ، وفى هذا تنافست أدوات الإعلام فى الداخل والخارج ، وجاءت قمة نفاق الخارج على لسان غريب ، فكانت أقبح الرياء وأخطر النفـاق ...

قام المستر بوش نائب الرئيس ريجان خطيباً فى مأدبة أقامها الرئيس السادات فى واشنطن فقال ان الله سبحانه وتعالى خلق العالم فى ستة أيام ، كان يخلق كل يوم ملايين البشر وملايين الزواحف والأنعـــام ، ثم خصـص سبحانه يومـا لخـلق السـيد المسـيح ، وفى يـوم خلق الرئيس السادات وما أظنه فى ذلك اليوم خلق شيئاً آخر اكتفاء بهـذا العمـل العظيم •••

وعندما انتهت المأدبة التفت الدكتور مصطفى محمود إلى رؤساء تحرير الصحف المصرية ، وقال لهم إياكم أن ترسلوا بهذا القول إلى صحفكم فإنه سيقيم الدنيا ويقعدها ، وعقبت السـيدة أمينة السعيد بأن نشر عبارة بوش سوف تسىء إلى المسلمين والمسيحيين •

وفى اليوم التالى استدعى الرئيس الراحل رؤساء التحرير باسم الثغر منشرح الصدر ، وسألهم هل استوعبوا ما قاله نائب الرئيس ريجان ؟ فتبرع منافق منهم وقال إن السيدة أمينة السعيد ــ دون أن يذكر مصطفى محمود ــ نصحت بعدم الإبراق لصحفهم بما قاله بوش ، ولكنهم جميعاً أرسلوا بذلك الحديث العظيم الذى ذكره بوش إلى كل الصحف المصرية ومجلاتها المختلفة •

ونظر الرئيس شذراً إلى أمينة السعيد ولم يقل شيئاً ...

ولا داعى لتكملة ما حصل فى مصر عندما جاءت برقيات الهراء من المنافقين الكبار ، فقــد استطاع رجل عاقل وســط هؤلاء المجانين أن يحبس البرقيات ويحــول دون نشر هــذا الكفر المبــين ...

صدقونى ما من أحد فى العالم يلقى هذا النفاق ويعيش وســط هذا الرياء ، ويقرأ ويسمع كل يوم وساعة ولحظة أنه منزه لا يخطىء ، وأنه والأنبياء على قدم المساواة وأن قوله لا يأتيه الباطل أبدا وأن فى مقدوره أن يرحم أو لا يرحم ... وأن فى استطاعته أن يرمى ببعض خصومه من رجال الدين فى السجون كالكلاب ...

ما من أحــد فى العالم يحاط بكل هذا النفاق ويبقى على طبعه الأصيل فلابد أن تغره الدنيا ولا يقبل نقــداً لسلطانه أو تصويباً لبيانه ، فمن المسئول عن هذا كله ؟

إنه النفــاق الذى مهــد لكل بلاء أصابنــا أو أصــاب الســـلطان ...

حين طالبنا بأحزاب حــرة لم تدلل فى حجر الســلطة ، بدأ رحمه الله حمــلاته على أحزاب ما قبــل الثورة ، وحتى

خطبه فى المناسبات العلمية التى يكون معظم الحاضرين فيهـا من الأجانب كما حدث فى احتفـال مصر بمضى مائة وخمسين عاما على انشـاء قصر العينى ، لم يفـوت الرئيس الحفـل دون شـتم رجال ما قبـل الثـورة وأحزابهم ، وان لم يفهم الحاضرون شيئا مما قال ، فهم يعرفون عن قصر العينى الكثير ولا يعرفون عن أحزاب ما قبل الثورة شيئا ...

وكان الحواريون يضـعون الخطب للرئيس ليلقيها فى الاجتماعات العامة ، وليس فى ذلك عيب يعيبه ، فان معظم الملوك والرؤساء فى العالم تضع لهم خطبهم جماعة من أهـل العلم ، موضع ثقة الملك أو الزعيم .

وقد كان تشرشل يعد له سكرتيره مستر إيدن بعض خطبه ، مع أن تشرشل فى زمانه كان أخطب من خطب وأكتب من كتب .

ولكن تشرشل لم يضع له الخطب جهلاء أو منافقون ، وهذا ما افتقده الرئيس الراحل فى كل خطبة أذاعها ، ومنها خطبة قيلت بمناسبة تأسيس جامعة الشعوب العربية والاسلامية ، فقد حدثنا عن رفاعة الطهطاوى بأنه قاد الجماهير العانية لمحاربة الولاة والخديويين ! فكتبت للرئيس رسالة أنبه الى أن الرجل نشأ وعاش ومات فى حجر السلطة ، وأنه كان رجل علم ، ولم تكن هناك صحف تصل بينه وبين جماهير المصريين ، حتى يشتغل

هو أو غيره من الأعلام بالشؤون السياسية ويقـــود الجماهير العانية ضد خديوى أو أمير ...

ومن طريف ما حدث أن الرئيس بعث برسالتى إلى كاتب خطبته ويبدو أن كاتب الخطبة كان قد استعان بصديق له فى كتابتها فطلب إليه أن يرد على رسالتى ، واذا بى أقرأ من غير مناسبة مقالة عن الطهطاوى فى إحـــدى صحف الحـــكومة فى ٩ ديسمبر ١٩٨٠ يحدثنا فيهـــا كاتبها أن الطهطـــاوى ترجم دســـتور ١٨٦٦ وأنه أول من ذكر فى كتبـــه لفظ « الوطنية » و « الأمة » ، وبذلك يكون الرجل زعيماً سياسياً ، مع أن كلمة الأمة ذكرها الله سبحانه وتعالى فقال للمسلمين « كنتم خـــير أمـــة أخرجت للناس » واستعمل المؤرخون كلمة الوطنية والوطن قبل أن يولد الطهطاوى بقرون ...

وهكذا صـــوروا للرئيس رحمه الله أن الطهطاوى الذى ترجم الدســـتور بأمر من الخديو اسماعيل ، وسجل كلمة الأمة والوطنية فى كتاب له ، زعيم سياسى يقف على قدم المساواة مع مصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس ؟ ! .

ومن الخطب التى وضعت للرئيس وألقـــاها فى مجلس

الشعب [١] خطبة جاء فى فقــرة منها أن الحقــوق التاريخية لعروبة القدس « لا يمكن تجاهلها » وأنه تحدث فى هذا الأمر مع بيجين ، وقال له « إن الأب اسطفانوس رفض **تسليم القدس إلا للخليفــة عمــر بن الخطــاب وكان ذلك بعــد الحروب الصليبية » ؟ !!! ...**

ومعنى ذلك أن القدس سلمت لعمر بن الخطاب بعد وفاته بنحو ثمانمائة عام ؟ ! ...

وجاء فى خطبته الأخيرة رحمه الله أن عبد الناصر أكثر وطنية من سعد زغلول ، وهذا حكم ينقضه التاريخ ، ولكن الجديد فى الخطبة ما أعده المنافقون فيها من جهل بتاريخنا ، فزعموا — وهو ما كرره الرئيس الراحل ست مرات — أن نوبار باشا ولى الحــكم بعد سعد زغلول سنة ١٩٢٤ ، ونوبار باشا هذا ، مات قبل استقالة سعد زغلول بعشرات من السنين ، وأن الذى ولى الوزارة بعد الزعيم سعد هو زيور باشــا ؟ !!!

ومن النفــاق الحقير أن صحفيا مرموقاً اتصل بالرقيب

---

(١) راجع جريدة الجمهورية يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر ١٩٨٠

« الخفى » الذى لا يعلن عنـــه ، وبيَّن له وجـــه الحق فى المسألة ليصدر أوامره لتصـــحح الصحف اسم الرجل الذى جاء فى الوزارة بعد سعد زغلول ، ولم يكتف بهـــذا الصحفى المرموق بل اتصل بالصحف نفسها ، ولمـــا كان الجبن ســـيد أخـــلاق المنافقين فإن رؤســـــاء الصحف لم يجـــرءوا على تصحيح الواقعة حتى لا يغضب السلطان ، وصـــدرت الصحف جميعا فى اليوم التالى إلا الأخبار وفيها أن نوبار باشا الذى مات فى القرن التاسع عشر جاء رئيسا للوزارة بعـــد سعد زغلول سنة ١٩٢٤ ! ...

ان عندى من الخطب التى أعدها المنافقون الجهلاء للرئيس السادات مائة ضعف ما نشرته فى هذه الصفحات ، وهو أمـــر لا يحتمل تسجيله كتاب صغير كهذا الكتاب ...

ومن ألوان النفاق التى أقلقتنى حقا وحزنت لها أشـــد الحزن ، نفـــاق أساتذة الجامعات ، ولم يكن الناس يعـــرفون شيئا عن نفاق هؤلاء الأعلام الذين تقوم على أكتافهم دولة العـــلم والإيمـــان ...

وقد كشف نفاقهم امتحان الماجستير الخاص بالســـيدة جيهـــان السادات ، فقد حضره الرئيس الراحـــل ، وفى ذيله بالطبع أقبل بعض الوزراء وكثير من حاشية الســـلطان ، وهو

أمر لا يبدو غريبا ، فالرئيس الراحل زوج الطالبة والوزراء وغيرهم من حقهم أن يحضروا المناقشة العلمية فقد يستفيدون مما يقال .

الغريب حقا أن المشرفة على الرسالة افتتحت المناقشة بأن تحدثت عن الشرف الذى نالته بحضوره كلية الآداب ، وأمضت نحو عشر دقائق تعدد أفضال الرئيس فى كل ميدان ، وهذه أقوال لم يحدث نظير لها فى أى جامعة منذ أنشئت الجامعات فى مصر والعالم ، ثم أخذ المتحنون الثلاثة يسألون ويجيبون على معظم أسئلتهم حين يرتج على الطالبة ويعوزها الجواب ؟ ...

ثم نشطت أجهزة التليفزيون فى تصوير هذا الامتحان وبثه على الهواء حتى انتهت المناقشة وتقرر للطالبة النجاح بامتياز ، وأضاف المتحنون لها امتيازاً آخر ، فقرروا فى اعلان نتيجة الامتحان طبع رسالة الطالبة ومبادلتها مع سائر الجامعات فى مصر والخارج .

قد تستحق الطالبة أكثر من امتياز ، بيْد أن الاحتفال بهذا الامتحان على هذا الشكل البغيض من النفاق سواء من المتحنين أو من أدوات الإعلام ، قد أثار حفيظة زميلاتها

اللاتى امتحن قبلها وبعدها فلم تظفـر إحداهن بجزء ضئيل مما جرى فى ذلك المهرجان ! •

ان النفـاق استشرى فى أيامنا الأخـيرة ، وكان عاما وصاخبا ، ولم تكن له حدود ، فالدولة كلها تنـافق ولى الأمـر ومن يلوذ به •

ومن الأمور التى أسخطت الناس ، أن الدولة لم تقصر نفاقهـا على رئيس الدولة وحده فكانت حفية بالسيدة الفاضلة قرينته ، وقد جلسنا أمام التليفزيون كل يوم ، وكل يوم كان نشـاط هذه السـيدة الذكية ينافس نشـاط الرئيس ويبزه أحيانا ، فهى تزور الولايات المتحـدة فتلغى برامج التليفزيون لثلاث ساعات نشـاهد أثناءها فيلما طويلا عن تلك الرحـلة ثم نشاهد كل يوم رئاستها للمؤتمرات العلمية والفنية ، وهى أمور ليست لها ولا لنا بها علم ، فهى معيـدة فى كلية الآداب ، ومع ذلك يزحف اليها الخبراء المصريون على بطونهم راجين منها أن ترأس ندواتهم العلمية التى لا يفهمها دارسو الآداب ! •

ثم ينزل النفـاق درجات ، فاذا نشرت الصحف أن مدير الجامعة مرشح لرئاسة مجلس الشعب ، أقامت له الجـامعة حفـلة تكريم ••• حفلة تكريم لمجرد أنه رشح لتلك الرئاسة !

ترى أأقيم له تمثال حين أصبح بالفعل رئيسا لمجلس الشعب ؟ ...

رحم الله لطفى السيد مدير الجامعة الذى استقال من وظيفته حين تدخلت الحكومة فى أمور الجامعة ونقلت طه حسين مفتشا أول للغة العربية بوزارة المعارف ، وأبى المدير حين أعيد الى منصبه بعد سقوط تلك الحكومة أن يقبل حضور حفل تكريم له ، واستخف بالفكرة وذكر لنا نحن الطلبة القائمين على هذا الاحتفال بأنه انما أدى الواجب ، وأداء الواجب لا يثاب عليه إنسان ...

ومن النفاق الطريف أن عضوا فى مجلس الشعب ينتمى الى حزب العمل رأى أن يتبرع من حر ماله بكذا ألف جنيه بمناسبة نجاحه فى الانتخابات لا لحزبه ولا لمؤسسة خيرية أو مستشفى أو مدرسة بل تبرع بتلك الآلاف للحزب الوطنى الذى أصبح رئيسه السادات (١) ...

وكان السخط عاماً على هذا النفاق الذى كلف المعروقين عشرات الملايين كل سنة فيما صرف من بذخ على الحفلات والاحتفالات فى مصر ، وعلى الزيارات للخارج المنقولة بالقمر

---

(١) جريدة الأحرار .

الصناعى وهو ما تنبه له الرئيس الجـديد حسنى مبـارك فألغى ذلك كله بجرة قلم حتى لا يكلف الميزانية كل هذه الملايين ووطنه يعانى أول ما يعانى ضائقة مالية خانقة تهـدد بأوخـم العـواقب إن طال بها الزمان •

لقد علمونا فى دروس الطبيعة أن الضغط يولد الانفجار ، ونسينا ذلك ونحن نسوس الملك فى مصر ، فكان الحاكم يتكلم وحده ويكتب وحده ولم يعد يُسمح لمواطن أن يرد بقـول أو رسـالة أو مقال فى صحيفة سيارة أو فى كتاب يوزع على النـاس •

وحين تحدى المعارضون السلطان وكتبوا بعض المقالات ، صدرت عدة قوانين تأخذ بتلابيب كل من يجـرى على شفتيه نقـد أو يجرى قلمه برأى مخالف على قرطـاس ، وأغلقت الصحيفتان المعارضتان •••

وانتشر الفساد فى كل موقع ، وتحـدث النـاس به فى المسـاجد والكنائس وقاعات المحاضرات فى الجامعات ، وهرُع الشياطين من المحيطين بالسلطة الممارسين لكل هذا الفسـاد الى السلطان يستعدونه على الأحـرار الشجعان الذين نصحوا ثم نقدوا ، فاذا السلطان يصدر قرارات فى شهر سبتمبر الماضى بتوصية من بعض وزرائه الذين يحملون فى جيوبهم المسدسات

وفى أيديهم السياط وفى قلوبهم الحقد الأسود ، وكانت حصيلة تلك القرارات فصل ونقل أساتذة الجامعات والصحفيين من مواقعهم ، ثم انتزاع أكثر من ألف وخمسمائة مواطن من بيوتهم الى السجون والمعتقلات ، وبعضهم من أفاضل الناس وكثير منهم يخطو الى الثمانين من عمره ، وقطاع منهم من رجال الدين مسلمين وأقباطاً ، ولم يعد فى مصر حر إلا الأقارب والأنسباء ومنافقو السلطان ! ...

وكانت قرارات ٥ سبتمبر التى أتمها مجلس الدولة وألغاها أخيراً [1] القشة التى قصمت ظهر البعير ، فلم يمض عليها إلا شهر واحد وكانت الكارثة الى هزت الدنيا بمصرع الرئيس السادات فى يوم الاحتفال العسكرى بانتصاره على العدو ورد كرامة مصر والعرب والانتقام لهزيمة يونيو النكراء .

كانت هذه المأساة فى المقام الأول حصيلة تأليه السلطان بالنفاق ، وكان الكبت والقضاء على الحرية وسياسة الحكم بالعنف لا بالحوار مصدرا من مصادر هذه المأساة فضلاً عن مصاصى الدماء وبعض المقربين من السلطان الذين دفعوه دفعا الى التخلى عن تاريخه العظيم واتخاذ سبل أخرى

---

(١) راجع جريدة الأهرام فى ١٢ فبراير ١٩٨٢

تفيض بالحقد والكراهية والمقت لكل عاقل يدعو الى تسـيـيد العدل والترفق بالمخالفين وأخذهم باللين ومجادلتهم بالحسنى ، وما كان يمكن أن يكون المحيطون بالرئيس إلا زبانية يعنيهم أن تخرس الألسنة عن كشف فضائحهم والتحدث عن فسادهم ، والإثراء على حساب الشعب الطيب المطحون الجائع العارى المشرد دون مأوى بين الشوارع والقبور ، وغيره تهدى له القصور يتوارثها الأبناء عن الأمهات ! •••

أمـا بعـد

فإنى أعود وأكرر بأن النواقيس حين تدق ، فهى دعـوة إلى صلاة أو إنذار بخطـر ، وهذا الكتاب دقة ناقوس •••

وإنى لأرجو أن تكون دقة الناقوس فى هذه المرة دعوة إلى احتفـال بهيج بنهاية النفـاق والمنافقين •••

وترحيباً بأيام خالية من الحقـد الدفين •••

وهتافاً لمن يقضى على الفساد والمفسدين •••

وتصفيقاً لعودة الديمقراطية وارتفاع رايات الحرية التى حرمناها سنين وسنين •••

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٢٦٣٩ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب

« من اليــوم لن يكون هنــاك باب مغلق

أو حجر على أصحاب الرأى والمفكرين »

حسنى مبــارك



الثمن ٥٠ قرشــاً